رسالة في اللاهوت والسياسة لاسبينوزا

بقلم: الدكتور حسن حنفي

١ ـ سبينوزا وديكارت :

سبينوزا هو الديكارتي الوحيد الذي استطاع ان يطبق المنهج الديكارتي تطبيقا جذريا في المجالات التي استبعدها ديكارت عن منهجه أعني مجال الدين الرسمي والكتب المقدسة والكنيسة والعقائد وتاريخ بني اسرائيل .. الخ . والتي يستطيع فيها أن يتبنى الأفكار الشائعة ويمارس الأخلاق المؤقتة ، ولذلك كان ديكارت مهادنا لرجال الدين الذين أيدوه في منهجه واعتبروه دعامة للدين ونصرة لعقائده ، أما سبينوزا فقد كانت هناك محاولة لاغتياله لموقفه التحرري في الدين وفي السياسة ، لأن سبينوزا أيضا هو الوحيد من بين الديكارتيين الذي طبق منهج ديكارت صراحة في ميدان السياسة فدرس أنظمة الحكم وقارن بينها ، ونقد النظم التسلطية القائمة على حكم الفرد المطلق ، وانتهى الى أن النظام الديموقراطي هو اكثر الأنظمة السياسية اتفاقا مع العقل ومع الطبيعة الانسانية .

ودرس الصلة بين الدين والدولة أو بين الفكر والواقع ، فالفيلسوف لا يتعامل مع النظريات والأفكار فحسب بل يستنتج منها نظاما للواقع ، فيفكر في الدولة كما كان الحال مع أفلاطون وأوغسطين قبله وهيجل من بعده . بذلك يفضل ديكارت نفسه الذي لم يطبق منهجه على النظم السياسية التسلطية التي اشتهر بها القرن السابع عشر ، كما يفضل مالبرانش الذي اسقط السياسة من حسابه فلم تكن لديه سوى تبشيرا بالمسيحية حتى حدود الصين! ، وكذلك يفضل ليبنتز الذي كان من انصار حكم العائلات الوراثي والذي أعد مشروعا لغزو مصر قدمه للملك لويس الرابع عشر لأن مصر هي نقطة الالتقاء بين الشرق والغرب أي « الرابطة الجوهرية » Vincuium subtantiale التي يرتكز عليها حساب التفاضل والتكامل . وفي الفلسفة العامة نجد أيضا أن سبينوزا هو الديكارتي الوحيد الذي استطاع أن يقضي على ثنائية ديكارت المشهورة بين النفس والبدن ، وبين الله والعالم ، وجعل النفس فكرة البدن ، وصفات الله قوانين الطبيعة ، هذه الثنائية التي جعلها هوسرل مسؤولة عن هذا الفصم في تاريخ الشعور الأوربي بين العقليين

والتجريبيين ، أى أن سبينوزا استطاع القضاء على ثنائية المنهج فى التطبيق وعلى ثنائية الفكر النظرى وكليهما ترجع الى ايمان ديكارت التقليدى بالدين الرسمى وبخضوعه وولائه للنظام الملكى، وليس هناك وجه للمقارنة بين مقدمة «التأملات» التى يهدى فيها ديكارت كتابه الى علماء أصول الدين وبين آخر فقرة فى مقدمة رسالة سبينوزا أو فى آخر الرسالة التى يخضع فيها كتابه للسلطات العليا فى هولندا ، اذ أن ديكارت يؤكد أن ليس فى تأملاته ما يعارض الدين بل انها تحتوى على تأييد لأهم قضاياه : وجود الله وخلود النفس وخلق العالم التى جعلها كانط مثل العقل الثلاثة ، أى أن ديكارت لم يأت بجديد بالنسبة لمفكرى العصر الوسيط الا هذا الطابع الشخصى الذى عرف به أوغسطين من قبل . اما فقرة سبينوزا فانها تدل على استعداده لمقارعة الحجة بالحجة وهو يعلم أن نتائج بحثه فى الوحى وفى نظام الحكم ستؤدى حتما الى ثورة المحافظين عليه دعاة ألوهية الكتاب المقدس وانصار النظام الملكى ، فديكارت يصالح رجال الدين وسبينوزا يبغى المصلحة العامة ضد رجال الدين وضد نظم الحكم القائمة ، ومن هذه الناحية يعتبر ديكارت محافظا وسبينوزا تقدميا . ويستغل سبينوزا دعوة ديكارت الى تطبيق النهج العقلى احسن استخدام، فاذا كان ديكارت يرى أن العقل هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس فان سبينوزا يرى أن العقل هو أفضل شىء فى وجودنا ، ويكون خيرنا الأقصى فى كمال العقل ، واذا كان ديكارت قد جعل من الفكرة الواضحة المتميزة المثل الأعلى لليقين فان سبينوزا سار على أثره وأخرج النبوة من نطاق الافكار الواضحة المتميزة الى نطاق الخيال ، كذلك يرفض المعجزات لاننا لا نعلمها بوضوح وتميز ، وكما يفعل ديكارت فى فحص الافكار وتميز الصحيح منها والباطل فى مثل سلة التفاح المشهور يضع سبينوزا الآيات المحرفة فى جانب والآيات الصحيحة فى جانب آخر . على أية حال جعل كلاهما من حياته تحقيقا لرسالة ، اراد ديكارت اقامة العلم وارساء قواعد اليقين المعرفة الانسانية فوجدها فى وجود الله وفى الصدق الآلهى . وأراد سبينوزا أيضا اقامه العلم وارساء قواعد اليقين للمعرفة الالهية فوجدها فى حتمية قوانين الطبيعة وفى التوحيد بينها وبين الله .

٢ ــ موضوع الرسالة :

يضع سبينوزا عنوانا ثانيا بعد العنوان الأول ــ كما يفعل عادة فى معظم كتبه ورسائله ــ ليكشف عن الغرض من الرسالة وهو اثبات أن حرية الفكر لا تعارض الايمان الصحيح أو كما يقول هو فى البرهنة على أن حرية التفلسف لا تمثل خطرا على التقوى الصحيحة فايمان يقوم على البحث الحر خير من ايمان يقوم على العادات والتقاليد الموروثة ، فحرية الفكر هى السبيل الى تطهير ما يعلق بالايمان مما يضاده من مصلحة طبقية أو صورة مظهرية أو حركة مسرحية . ويؤدى القضاء على حرية الفكر الى ضياع التقوى وتحويل الايمان الى وثنية أو طاغوت . يطبق سبينوزا اذن منهج العقل ضد الخرافة والخزعبلات ، أو يطبق منهج العلم على مايعترى الناس من مخاوف وأوهام . غاية الرسالة اذن تحرير الشعور الدينى بعد أن وقع فريسة للخرافة خاصة وأنه يميل بطبيعته الى التصديق السريع بتذبذبه بين الخوف والرجاء ، بين الرهبة والرغبة ، اذا اعتراه الشك يصبح ريشة فى مهب الريح، واذا حصل على اليقين امتلأ بالغرور! وهكذا يبدأ سبينوزا رسالته كعالم من علماء

النفس والاجتماع يحلل طبيعة الانسان ويصف تكوين الشعور الدينى المبنى على الخرافة ، فيصبح أعجز الناس أكثرهم حكمة وأولهم اطاعة للنصائح حتى ولو كانت خاطئة ، يثير فيه أقل شيء الخوف أو الرجاء ، ويرى فى الحوادث الحسنة فألا طيبا ويتشاءم بالحوادث التى لا تقع وفق هواه ، اذ أدهشه شيء ظنه معجزة من عند الله ، ويتحاشى ضربات القدر بالشعائر والنذور. وبهذه الأساطير يفسر الطبيعة وكأنها تهذى معه، وكلما اشتد طمعه غرق فى الخرافات ، فاذا وقع فى مأزق ابتهل الى الله ، وطلب العون الالهى أو أعلن عجز العقل الانسانى عن الادراك ! وتنشأ الخرافة من الخوف، والخوف ضعف فى الارادة ونقص فى الشجاعة ، ويكون افتراض علة أولى تفوق الطبيعة نتيجة لهذا الضعف ولهذا النقص وهو ما لاحظه برجسون على التفكير العقلى اذ عد الفيلسوف انسانا لديه ضعف فى الارادة Velléité ، ولهذا كانت الخرافة أفضل الوسائل لتسيير العامة ، فتحتفل السلطات العليا بالموالد وبأتقياء الله وعباده الصالحين لتسير العامة وراءها وتنظر الى الملوك باعتبارهم آلهة ثم يزينون الدين بالشعائر ، أى يتم استخدام الدين للسيطرة على الجماهير ويكثر الحاكم من بناء المعابد حتى يخضع الشعب لله وللحاكم فى نفس الوقت وكما يقسو الحاكم على الشعب يقسو المؤمنون على غيرهم ، فالمؤمنون هم اكثر الناس قدرة على القسوة وعلى الكراهية وأكثرهم تعصبا حتى ليعرف قوة الايمان بمقدار غضبهم له وحقدهم على البشر ، فالمؤمن قاس بطبعه لأنه يشعر بأن الله معه فى فعله وأنه يفعل باسمه [١]، ويميز المؤمنون أنفسهم فيما بينهم بالعقائد والشعائر والملابس والاسماء وحياتهم واحدة والفضائل واحدة ، فيظن الجمهور ان الدين هو المناصب الكنسية للارتزاق منها والتعيش عليها ، حتى اصبح الكهنوت اغراء للجميع واشتاقت اليه أشد القلوب قسوة ، وأصبح الشره أو الطمع طريقا للدعوة الى الله . تحولت الكنائس الى مسارح، ورجال الدين الى خطباء محترفين لا يرومون تعليم الشعب بل التكسب منه كما يفعل الحكام الطغاة ومن هنا جاء التواطؤ بين رجال الدين وأصحاب السلطة ، بين المعابد وأقسام الشرطة، وغايتهم أن يعجب بهم الناس ، وطبيعى أن يدب الحسد والتنافس بينهم على ما اغتنموه، ولم يبق من الدين اذن الا عبادة الأوثان Adulation لا عبادة الله Adoration وأصبح الايمان هو التصديق بالأحكام السابقة خاصة أحكام من يجعلون البشر فى منزلة الحيوانات بمنعهم اياهم من حرية الحكم والتمييز بين الخطأ والصواب ، وأصبح الدين مجموعة من الخرافات والخزعبلات والأساطير وبواطن الصوفية ، احتقارا للعقل الذى اعتبره رجال الدين فاسدا بالطبع ! مع أنهم لو اهتدوا الى النور الفطرى لما أصابهم الغرور ولما لجأوا الى الكذب ولعبدوا الله حبا فيه لا كراهية فى الناس ولما اضطهدوا مخالفيهم فى الرأى ولحرصوا على سلامتهم ولما أعجبوا بأسرار الكتاب مع أن هذه الأسرار فى الحقيقة لا تتعدى بعض نظريات أفلاطون وأرسطو التى وفقوها مع الدين حتى لا يتهمهم الناس باتباع الوثنيين فجعلوا الأنبياء يهذون ولم يشكوا مطلقا فى المصدر الالهى للكتاب المقدس وكلما شعروا بأسراره ازدادوا طاعة له [٢] .

والغرض الثانى من الرسالة يكشف عنه سبينوزا أيضا فى العنوان الثانى للرسالة وهو أن حرية التفكير شرط لتحقيق الأمن الداخلى فى

---

(١) p. 666.

(٢) pp. 666-8.

الدولة ، اذ أن حرية الفكر دعامة الرأى العام والرأى العام هو الراصد لكل ما يحدث فى الدولة خاصة فى الأمور الداخلية ، فاذا قضى على حرية الفكر قضى على الرأى العام وأصبحت الدولة بلا دعامة داخلية ، يفعل الحاكم ما يشاء ، وتفعل أجهزة الحكم ما تريد ، ثم تنشأ الجماعات السرية المناهضة للحكم ويقضى على أمن الدولة • لذلك لا يجب ألا تتدخل السلطات العامة فى الحريات الفردية والا تعرض أمن الدولة للخطر ، فالحرية هى « الحق الطبيعى » للفرد ، وكل فرد حر بطبيعته ، وكل فرد هو الضامن لحريته ، والدولة هى الممثلة لسلطة الأفراد الذين خولوا لها حقهم بموجب عقد اجتماعى ضمنى أو صريح ، لذلك لا يحق لها سلب الأفراد حريتهم والا تحولت الى نظام ديكتاتورى كما هو الحال فى النظم الملكية والنظم القائمة على حكم الفرد المطلق • وتنشأ الفتن عندما تتدخل الدولة بقوانينها فى الأمور النظرية فتنتصر لبعضها وتعادى البعض الآخر ، هذه الأمور التى يستطيع كل فرد أن يتصورها كما يشاء دون أن يكون فى ذلك أى خطر على أمن الدولة وسلامتها ، فالدولة تضع التشريع للافعال لا للأقوال أو الأفكار ، فللمواطن أن يعبد الله كما يشاء وله الحرية فى أن يتصوره كما يريد ولا تقطع الرقاب لمجرد أقوال أو تصورات كلها ظنية •

ورسالة سبينوزا هى فى الحقيقة دراسة للصلة بين السلطات اللاهوتية والسلطات السياسية وهذا ما أوضحته الترجمة الفرنسية مادلين فرنسيس فى ترجمتها لعنوان الرسالة
Tractatus théologico-politicus
الى Traité des autorités thiologico لبيان أن غرض سبينوزا هو دراسة الصلة بين رجال الدين وأصحاب السلطة أى دراسة للأوضاع التى عاش فيها سبينوزا • لذلك كان سبينوزا معاديا لأقصى درجة ، فالسياسة عنده نقطة تطبيق للدين أو استنتاج منه ، ولذلك يمثل الجانب السياسى ربع الرسالة والجانب الدينى ثلاثة أرباعها[1] •

٣ ـ النبوة[2] :

النبوة أو الوحى معرفة يقينية يوحيها الله الى الانسان على لسان النبى فيعبر عنها للبشر ، فمهمة الرسول صياغة الوحى بأسلوبه وعلى طريقته وباستدلالاته حسب فهم العامة • والنبى عند العبرانيين مجرد مفسر أو خطيب أو هو العراف قارىء المستقبل ولقد سمى يشوع « بلعم » عرافا أو مبشرا • ولا يحاول سبينوزا معرفة سبب النبوة أى قوانين الطبيعة التى تحدث النبوة طبقا لها ، ولا يمكن أن تكون قدرة الله هى السبب لأنه لا يمكن تفسير واقعة فريدة بسبب متعال بالاضافة الى أن قدرة الطبيعة هى قدرة الله نفسه • السبب الأول اذن فى وجود الوحى طبيعة الروح الانسانية وقدرتها على تكوين بعض الافكار تفسر بها طبيعة الأشياء وتدل على الحياة الحقة[3] • يريد سبينوزا اذن دراسة الوحى فى التاريخ ابتداء من اعلانه على لسان النبى للآخرين حتى مرحلة التدوين دون أن يبحث صلة النبى بالله أو بالطبيعة أى انه يدرس الوحى دراسة أفقية لا دراسة رأسية •

ويوحى الله الى الأنبياء اما بالكلام أو بالرؤية أو بالوسيلتين معا ، ويكونان أما حقيقة أو خيالا ،

---

(١) يستغرق التفكير الدينى من الفصل الاول حتى الفصل الخامس عشر ، والتفكير السياسى من الفصل السادس عشر حتى الفصل العشرين (P. 613 - 90)

(٢) «البنوة» موضوع الفصل الاول وكذلك الفصل الثانى بعنوان الانبياء (pp. 690-707.)

(٣) p. 676.

فقد أوحى الله الشريعة الى موسى بصوت حقيقى وهو الصوت الوحيد الحقيقى فى تاريخ النبوة كله ، أما الصوت الذى سمعه دانيال فهو صوت خيالى ، ولكن يستحيل أن يعبر الصوت عن ماهية الله ووجوده ، لذلك لم يعرف بنو اسرائيل من الله الا اسمه • كما يوحى الله الى الأنبياء عن طريق الرؤية بل ان الوحى Revelotione هو رؤية أى صورة حسية كما حدث لداود عندما رأى ملكا ممسكا بسيف دليلا على غضب الله (بالرغم من انكار موسى بن ميمون لذلك) أو عندما رأى يشوع ملكا ممسكا بسيف أيضا دليلا على النصر ، ولكن طبقا للكتاب موسى هو الوحيد الذى رأى الله رؤية مباشرة دون رموز كما حادثة بصوت حقيقى • وهناك أيضا وسيلة الاتصال المباشر دون الاستعانة بأى مظهر حسى صوتا كان أو رؤية ، وهى الوسيلة التى يخبرنا بها الله عن ماهيته ، وهى وسيلة روحية محضة ولم يصل اليها الا المسيح الذى اتصل بالله اتصال الروح بالروح(1)، ويرفض سبينوزا كل نظريات الكنيسة حول طبيعة المسيح وشخصه ولا ينظر اليه الا من الناحية المعرفية كوسيلة مباشرة للاتصال بالله وهو مايستطيعه الفيلسوف أيضا عن طريق الحب، أى عن الطريق الثالث للمعرفة (بعد طريقى الحس والعقل)•

ولا تعنى عبارة « روح الله » فى الكتاب فى قوله « أوحى روح الله » أو « تحدث الأنبياء باسم روح الله » ، لا تعنى روح الله بالفعل ، فالروح تعنى فى العبرية الريح والنسمة والنفخ والتنفس والقوة والطاقة والاستعداد والرأى والارادة والرغبة والدافع كما تعنى كل الانفعالات من غرور وتواضع وحب وكراهية وتطرف واعتدال ، كما تعنى روح الانسان ومناطق العالم، وكلها معان مجازية • فتنسب كل واقعة الى الله اذا كانت جزءا من طبيعته مثل « قدرة الله » أو خاضعة لقدرته مثل « سماء الله » أو مخصصة له مثل « معبد الله » أو منقولة عن السنة النبوية مثل « شريعة الله » أو للدلالة على العظم مثل « جبال الله » • وقد كان بنو اسرائيل ينسبون كل شيء الى الله عندما يجهلون علته المباشرة ، بل كانوا يعتبرون حوادث الطبيعة كلها أفعال الله خاصة خوارق العادات أو الأشياء الغريبة ، فالرجل الطويل هو « ابن الله » ومن هذه الناحية لا يختلف اليهود عن الوثنيين فى شيء • وقد استعملت هذه المعانى المجازية للتعبير عن الحقائق الالهية بالصور الانسانية • فعندما يذكر الكتاب أن « روح الله كانت فى النبى » أو أن «الله انزل روحه على البشر» تعنى هذه العبارات أن الأنبياء كانوا بشرا ممتازين يؤمنون بالله ويعبدونه عن حق ، ويدركون الأحكام الالهية اذ تدل « الروح » على النشاط الذهنى أو على الحكم ، ولذلك سميت الشريعة « روح الله » وسمى خيال النبى « فكر الله » • والحقيقة أن فكر الله مطبوع فى البشر جميعا كالمعرفة الفطرية ، ولكن نظرا لاعتقاد العبرانيين أنهم أصفياء الله ادعو أن روح الله حلت فى أنبيائهم لجهل العامة بالعلل المباشرة للمعرفة النبوية • وعندما يقول الكتاب عن المسيح أنه « ابن الله » فانه يقصد المعنى المجازى لا المعنى الحقيقى • لذلك يدرك النبى الوحى بخياله لا بعقله • لم يعبر الأنبياء عن أفكارهم بالقضايا الواضحة بل بالرموز والأمثلة والتشبيهات الحسية وهو ما يتفق مع طبيعة الخيال ، والخيال بطبيعته غامض متقلب ، لذلك ظهرت النبوة عند بعض الناس غامضة متغيرة ، لم يكن الأنبياء اذن أكمل عقلا بل أخصب خيالا • كان سليمان حكيما

(1) pp. 680-1.

ولكنه لم يتمتع بهبة النبوة وكانت لهجر هبة النبوة مع أن لا علم لها ، وكلما كان النبي أكثر عقلا كان أقل خيالا ، وكلما كان أكثر خيالا كان أقل عقلا .

لا يحتوى الكتاب اذن على معرفة عقلية أو طبيعية بل على خيال خصب [1] . ويختلف الأنبياء فيما بينهم في قدرتهم على التخيل وفي المزاج وفي الآراء والمعتقدات فيتكيف الوحي حسب عقليتهم وقدراتهم العقلية ومستوى فهم العامة ، ولم يقل الأنبياء شيئا الا ما اتفق مع المعتقدات الشائعة بل انهم جهلوا الأمور النظرية الخالصة التي لا تتعلق بالعدل والاحسان .

ولا يجوز أخذ أقوال الانبياء على أنه معرفة عقلية صرفة لأن الوحي يتعدى حدود المعرفة الطبيعية ، اذ يستعمل الله وسائل أخرى لتبليغ الناس ما يعرفونه من قبل بالنور الفطرى فالاختلاف بين الوحي والمعرفة العقلية اختلاف في وسائل التبليغ ، فالوحي يدعو له الأنبياء والعرفة العقلية في متناول البشر جميعا يدعو لها الفلاسفة[2]. ولكن الوحي يطابق الدين الشامل La religion universelle الذى نعرفه بالنور الفطرى، وعلى هذا النحو ليس في الوحي ما يعارض العقل فتعاليم الأنبياء بسيطة للغاية يدركها الفرد بسهولة ولكنها مكتوبة بأسلوب شعرى حتى تؤثر في العامة . كما يتفق الوحي مع المعرفة الطبيعية لأننا نحصل عليها من الله ومن مشيئته الأبدية ، وهي معرفة عامة مشتركة بين جميع الناس ولكن العامة تحقرها نظرا لأنها لا تعترف الا بالمواهب الخاصة، ومن ثم يتحدثون عن الوحي ويخرجونه من نطاق المعرفة العقلية ، ولكننا نستطيع تسمية المعرفة الطبيعية معرفة الهية كالوحي تماما فلا تقل المعرفة الطبيعية عن الوحي في شيء، بل ان المعرفة الانسانية الواضحة المتميزة تأتي من الطبيعة الالهية دون توسط الكلمات ، بل باتصال مباشر كما يحدث للمسيح تماما .

لذلك يجب معرفة النبوة من الكتاب وحده لأن معرفتنا بها ليست معرفة حقيقية بالعلل الأولى، وقد حصل الأنبياء على يقين النبوة من الوحي وحده لأنها ليست معرفة عقلية تعتمد على يقين العقل ومن هذه الناحية تكون النبوة اقل من المعرفة الطبيعية التي تعتمد في يقينها على نفسها لا على الآيات الخارجية كما هو الحال في النبوة، لذلك لم يكن يقين النبوة عقليا رياضيا - كما هو الحال في العرفة الطبيعية - بل يقينا خلقيا . وبالرغم مما قد يثير ذلك من شك في الوحي فان النبوة على درجة كبيرة من اليقين يعتمد على أسس ثلاثة :

١ - تخيل الأنبياء للأشياء الموحى بها بطريقة حية كادراكنا للأشياء الطبيعية .

٢ - اعتماد الانبياء على الآيات والمعجزات .

٣ - ميل الأنبياء الطبيعي الى العدل والخير ، الأساس الاول خاص بالنبي والأساسان الآخران للبشر جميعا [3] .

٤ - الميثاق المؤقت والميثاق الأبدي : [4]

يدعى اليهود أن النبوة خاصة بهم وأن الله عقد معهم ميثاقا أبديا وأصطفاهم على العالمين . لكن السعادة الحقة ليست في حصول البعض على المغانم وحرمان الآخرين منها ، ولا يكون الناس اكثر سعادة اذا حصلوا على غنائم اكثر ، كما أن الفرح بالسعادة التي تفوق سعادة الآخرين فرح صبياني منشؤه الحسد لأن السعادة هي الحكمة

---

pp. 689-91.
pp. 673-5.

(٤) وهو موضوع الفصل الثالث بعنوان " رسالة العبرانيين وهل هبة النبوة خاصة بهم pp. 719-22.

وطلب الحق لا أن يكون الانسان أحكم من الآخرين أو أن يحرم الآخرون من الحكمة • فعندما يخبرنا الكتاب بما فضل الله به العبرانيين ليحثهم على طاعة الشريعة فانه لا يدل على أنهم حصلوا على السعادة الحقة ، ولا تقل سعادتهم لو أن الله دعا البشر جميعا الى رحمته ، ولا يكون الله أقل رعاية لهم لو أنه رعا الآخرين ولاتكون الشريعة أقل عدلا لو أنها وضعت للناس جميعا، ولا تقل قدرة المعجزة لو أن الله أجراها للبشر جميعا • صحيح أن الله أعطى موسى الشريعة للعبرانيين وخاطبهم وكشف لهم عن نفسه ولكنه لم يستبعد الأمم الأخرى من علمه ورحمته ، بل ان العبرانيين ــ بالرغم مما أعطاهم الله من فضله لم يكونوا أصفياء الله فيما يتعلق بالحياة الحقة والتأملات النظرية الرفيعة [١] •

لقد اختار الله بنى اسرائيل ووضعهم فى ظروف عادية متميزة وسن لهم موسى قوانين الدولة ، ولكن هذا التشريع لا يلزم الا اليهود وحدهم ولا يلزم أى شعب آخر بل ان اليهود أنفسهم لم يلتزموا بهذا التشريع الا أثناء قيام دولتهم لذلك أختارهم الله لوجودهم فى دولة خاصة بهم • كان اختيار الله لهم اختيارا مؤقتا لا أبديا كما اختار الكنعانيين من قبل ثم رفضهم لجريهم وراء الملذات ولرخاوتهم ولنفاقهم فى العبادة ، وهناك نصوص كثيرة فى الكتاب تدل على ان الله لم يصطف العبرانيين الى الأبد ، على على عكس الأتقياء الذين حددوا ميثاقهم مع الله ، ميثاق الحب والمعرفة والفضل وهم القلة القليلة الباقية Lepetitreste التى يستمر بها الوحى فى التاريخ• ولقد دعا سائر الأنبياء جميع الأمم الى هذا الميثاق الجديد لا فرق بين العبرانيين وغيرهم • وقد عبر العبرانيون عن هذا الميثاق بكلمات وقرابين ونذر وشعائر وبناء للمعبد وللمدينة المقدسة لأنهم لا يستطيعون ادراك الأشياء الروحية الا فى مظاهر حسية • واليوم لم يعد للعبرانيين هذا الحق • لقد ظلوا مشردين فى أنحاء الأرض وعاشوا منبوذين من جميع الأمم حتى أنهم جلبوا على أنفسهم أحقادا وضغائن لتكوينهم مجتمعات مغلقة معزولة داخل الأمم [٢] •

ان كل ما يصبو اليه الانسان لا يتعدى أشياء ثلاثة :

١ ــ معرفة الأشياء بعللها الأولى •

٢ ــ السيطرة على انفعالات النفس والتحقق بالفضيلة •

٣ ــ العيش فى سلام مع جسم سليم •

ووسائل الحصول على الغايتين الأولين موجودة فى الطبيعة الانسانية ولذلك فهى لاتقتصر على أمه دون أمة، أما الغاية الثالثة فتعتمد على الظروف الخارجية المحضة ، على الرزق والحظ ، ووجد الناس أن أفضل وسيلة لذلك تكوين مجتمع قائم على احترام القوانين ، واحتلال بقعة من الأرض وتوحيد قوى الجميع فى بناء اجتماعى واحد ، وبهذه الطريقة يكفل المجتمع الأمن والاستقرار ويكون أقل خضوعا للحظوظ والا ظل مجتمعنا بدائيا يعتمد على الحظ أو على حكم مجتمع آخر له أو على حكم الله انتظارا لمعجزة • وهذا هو السبب فى اختيار العبرانين وتفضيلهم على باقى الأمم نظرا لنظامهم الاجتماعى ولغناهم المادى بعون الله الخارجى • وفيما عدا ذلك يتساوى العبرانيون مع سائر الأمم ولا يتميزون عنهم فى العقل أو فى

---

(١) pp. 707-8.
(٢) p. 693.

pp. 749-52.

الفضيلة . لقد اختارهم الله ليسرهم فى الحياة ولثرائهم ولم يعد الله البطاركة سوى ذلك ولم تعد الشريعة بشىء جزاءا لمراعاة العبرانيين لها الا بالابقاء على الدولة وحظوظ الحياة ولم تعد بشىء عقابا لهم على مخالفتها الا بالقضاء على الدولة واصابتهم بأقسى المحن. ولقد أظهر الله من المعجزات لسائر الأمم كما أظهر للعبرانيين وأرسل لهم من الأنبياء كما أرسل العبرانيين، فكان للوثنيين أنبياء لم يعتن العبرانيون بتسجيل تاريخهم لأنهم لم يدونوا فى العهد القديم الا أمورهم الخاصة ، فالله اله العبرانيين واله الأمم الأخرى على السواء [1] .

٥ ـ القانون الطبيعى والقانون الالهى : [2]

القانون على الاطلاق اندراج جميع الأفراد تحت قاعدة واحدة معينة . ويعتمد القانون اما على الضرورة فى الطبيعة أو على القرار الانسانى ويعتمد القانون على الضرورة فى الطبيعة عندما يصدر ضرورة عن الطبيعة نفسها أو عن تعريف الموضوع، ويعتمد على القرار الانسانى ـ ويسمى فى هذه الحالة قاعدة ـ ليجعل الحياة اكثر سهولة وأمنا [3] . اما القانون بمعناه الخاص فهو الأمر الذى يقوم الانسان بتنفيذه ويمد من قدرته ويأمره بما يستطيع . وقد قام المشرعون بوضع مثل هذه القوانين حتى تسير الحياة وفقا للعقل ومعها الجزاء والعقاب خاصة للعامة لأن الخاصة يعرفون الغاية من وضع القوانين وهى العدل . ومن هنا جاءت التفرقة بين القانون الانسانى والقانون الالهى ، فالقانون الانسانى قاعدة للسلوك تبغى أمن الحياة وسلامة الدولة ، أما القانون الالهى فلا يبغى الا الخير الأقصى أى معرفة الله وحبه . وتكون معرفتنا يقينية اذا اعتمدت على معرفة الله وحده ولا يمحى الشك الا اذا كانت فكرتنا عن الله واضحة متميزة ، وبذلك يكون كمالنا وخيرنا الأقصى فى معرفة الله ، كما أن الموجودات الطبيعية كلها تعبر حسب درجة كمالها عن الله ، فكلما عرفنا الموجودات الطبيعية كملت معرفتنا بالله ، ويكون أمر الله هو فكرته فينا ويكون قانون الله قاعدة للسلوك فى حياتنا العملية ، ويصبح علم الاخلاق الشامل L'éthique universelle وكيفية استنباط القواعد العملية من هذه الغاية وهو ما قام به سبينوزا بالفعل فى كتابه « الاخلاق » [3] .

حب الله اذن هو النعيم الأبدى ، لا ينشأ عن خوف أو رغبة ، بل عن معرفة الله ، ويكون القانون الالهى هو حب الله باعتباره الخير الأقصى وتكون شريعة موسى بهذا المعنى الانسانى الجديد قانونا الهيا ينتج عنه حقائق أربعة :

١ ـ انه قانون شامل يصدق على كل الناس تم استنباطه من الطبيعة الانسانية وشمولها .

٢ ـ انه لا يقتضى التصديق بالروايات مهما كان مضمونها لأننا نعرفه من الطبيعة الانسانية.

٣ ـ انه لا يتطلب اقامة الشعائر والطقوس والافعال التى لا تكون حسنة أو قبيحة فى ذاتها.

٤ ـ انه يعطينا معرفة الله وحبه بروح صافية [4] .

ولكن هل يستطيع النور الفطرى تصور الله كمشرع للبشر؟ ان الارادة الالهية والطبيعة الالهية لا تتميزان الا من وجهة النظر الانسانية فقدرة الله وعلمه شىء واحد ، اذا علم شيئا حدث واذا حدث حدث شيئا علمه، فعلم الله يتضمن ضرورة

---

pp. 710-19.

(٢) هو موضوع الفصل الرابع بعنوان «القانون الالهى» (pp. 722-35.) والفصل الخامس بعنوان «سبب ونبع الطقوس ، التصديق بالروايات ولمن يكون ضروريا [illegible] فى ذلك pp. 735-48.

pp. 722-4.
pp. 724-6.
pp. 727-8.

أى حقيقة أبدية ، لقد أدرك آدم الحقائق الالهية على أنها قوانين لا حقائق أبدية ، كما تصور العبرانيون الوصايا العشر قوانينا لا حقائق أبدية فتصوروا الله مشرعا أو أميرا أو ملكا مع أنها صفات للانسان لا تجوز على الله. اما المسيح فانه أدرك القوانين ادراكا روحيا باعتبارها حقائق أبدية أى أنه أدركها عقلا كما يحدث للفيلسوف، وبذلك حرر العبرانيين من عبودية القانون ، ولم يتصور الله كمشرع بل كطبيعة تتضمن ضرورة مطلقة وحقيقة أبدية، وبذلك نقل سبينوزا الحقائق الأبدية التى وضعها ديكارت فى الطبيعة البشرية، نقلها الى الشريعة ووحد بين العقل الالهى والارادة الالهية . ونستطيع بالنور الفطرى معرفة الخير والشر أى معرفة القوانين الالهية ولقد سمى سليمان العقل ينبوع الحياة وذلك لأن علمنا مستمد من معرفتنا بالله ، كما يحتوى على مبادىء الأخلاق والسياسة ، ويكون النعيم اذن فى تنمية العقل الطبيعى لأنه قادر على ادراك القانون الالهى [١] .

ما هى الغاية اذن من الشعائر الدينية ؟ اذا كان القانون الالهى الطبيعى موجودا فى النفس الانسانية فان الشعائر الدينية قد اقيمت للعبرانيين وحدهم يحتفل بها جماعة لا أفراد داخل الدولة، فهى اذن منفصلة عن القانون الالهى ولا تزيد أو تنقص من السعادة الأبدية أو من الفضيلة بل مرتبطة بالنعيم الأرضى للعبرانيين وبسلامة الدولة ولم تعد الوصايا العشر الا بهذا الجزاء المادى والنعيم الدنيوى ، أما المسيح فقد وعد بجائزة روحية ولم تهمه المحافظة على الدولة بل أعلن القانون الشامل قانون الحب ، لم ينسخ قوانين الدولة بل أكملها بالوصايا الخلقية ، وقد استبعد الحواريون الشعائر بعد خضوعهم لقوانين دولة أخرى ولا يدل بقاء الفاريسيين Les Pharisiens على الشعائر اليهودية الا على عدائهم للدين الجديد لا على محافظتهم على دينهم الأصلى أو ارضاء لله بدليل أنهم أسقطوا الشعائر وهم فى أسر بابل وبدأوا بالاختلاط بالامم الاخرى . وتساعد الشعائر على المحافظة على الدولة لأنها عامل توحيد للأفراد وعلى الترابط الاجتماعى. تقوم الجماعة على تقسيم العمل الذى يحتاج الى تنظيم قانونى يمثله شخص أو جماعة تكون لها الكلمة العليا أمام العامة وترى فيها العامة تحقيقا لرغباتها ، وهذا ما حدث للعبرانيين . فعندما خرجوا من مصر لم تكن لهم أية قوانين وكان باستطاعتهم وضع قوانين جديدة واقامة دولة واحتلال أرض ولكنهم فضلوا الالتزام بقوانين الجماعة وظلت السلطة فى يد موسى الذى حاول اقناع العبرانيين بالقوانين لا بالخوف وذلك لعصيان الشعب الطبيعى ولخطر الحرب الذى يحتم اقناع الجند . لذلك أدخل موسى الدين فى الدولة حتى يقوم الشعب بواجبه عن ايمان لا عن خوف ومنى الشعب بالوعود . أما الشعائر فقد أقامها من أجل مصلحة الدولة لا من أجل الحصول على السعادة [٢] .

وكما لا تفيد الشعائر الدينية فى الحصول على السعادة كذلك لا تفيد الروايات التاريخية فى الحصول على المعرفة الالهية . ان مهمة الرواية هى تقريب الأشياء الى أفهام العامة لأن التجربة أو التاريخ لا يستطيع أن يعطى معرفة واضحة متميزة كما يعطى العقل ، لذلك يجب على العامة التصديق بالروايات لأنها لا تستطيع ادراك الأمور النظرية ، ومن ينكر هذه الروايات لأنه لا يؤمن بالله فهو كافر ،

pp. 728-35.

(٣) هى موضوع الفصل السادس pp. 749-67.
pp. 753-61.

ومن يجهلها ويؤمن بالله بالنور الفطري ويراعى قواعد السلوك فانه يحصل على السعادة الأبدية لان لديه معرفة واضحة ومتميزة عن الحقائق الالهية ، ولا تستطيع العامة البرهنة على معتقداتها بطول البحث في الروايات وفى صحتها ، وعليها أن تؤمن بهـ كما هى فهى تحثهم على الطاعة • لذلك تحتاج العامة بالاضافة الى هذه الروايات الى رجال الدين والى كل الجهاز الدينى • قد نجهل الروايات ويظل سلوكنا فاضلا ونحصل ونحصل على السعادة الأبدية على عكس ما يظن ابن ميمون من اصراره على تلقى الوحى وعدم كفاية النور الفطرى (١) •

٦ ـ المعجزة : (٢)

لما سمى العلم الذى يتعدى حدود المعرفة الانسانية علما الهيا تعود الناس تسمية حوادث الطبيعة التى يجهلون أسبابها افعال الله ، أى أن قدرة الله لا تظهر الا بقدر ما تخرق قوانين الطبيعة خاصة اذا كان فى هذا الخرق فائدة مادية ، ويكون أقوى برهان على وجود الله زعزعة الثقة فى نظام الطبيعة ، لذلك يعتقد أصحاب هذه النظرية بوجود قوتين منفصلتين : قدرة الله وقدرة الطبيعة ، ويتصورون قدرة الله مثل قدرة الملك ، وقدرة الطبيعة على أنها قوة عمياء ، وقد سمى العامة أعمال الطبيعة الشاذة الغريبة معجزات على عكس ما يقوله أنصار العلم الطبيعى ، وهذا هو اتجاه العبرانيين الأوائل يوجد الله بمقدار قهره لنظام الطبيعة ، وهذا جهل بفكرة الله وبفكرة الطبيعة على السواء • والحقيقة أن نظام الطبيعة ثابت لا يتغير ولايحدث شىء مخالف له ، وكل ما يريده الله يتضمن [illegible] وضرورة أبدية لأن عقل الله وارادته شىء واحد ، ولا يوجد شىء حقيقى الا بمشيئة الله ، وبذلك تكون قوانين الطبيعة أوامر الهية تصدر عن ضرورة وكمال الطبيعة الالهية • فاذا حدث شىء مخالف لهذه القوانين فانه بالتالى يناقض مشيئة الله وعقله وطبيعته واذا فعل الله شيئا مناقضا لقوانين الطبيعة فانه يعمل ضد طبيعته ، وهذا مستحيل • ان قدرة الطبيعة هى قدرة الله، وقدرة الله مماثلة لماهيته ، وقوانين الطبيعة لا نهائية كالعقل الالهى • فالمعجزة اذن عمل من أعمال الطبيعة نجهل عللها المباشرة ولا نستطيع ادراكها بالنور الفطرى، والمعجزة بالمعنى التقليدى أى خرق قوانين الطبيعة مستحيلة الوقوع لأن قوانين الطبيعة هى صفات الله وصفات الله لاتتغير او تتوقف عن الفعل لحظة (٣) • وهذا ما قاله فونتنل Fontenelle ورينان Reuan بعد ذلك، الأول باسم العقل والثانى باسم العلم ، لذلك كان سبينوزا من أنصار الحتمية فى الطبيعة • ان الله هو الطبيعة الطابعة La nature naturante والعالم هو الطبيعة المطبوعة La nature naturie

ونحن لا نستطيع أن نعرف عن طريق المعجزة وجود الله أو ماهيته أو عنايته ، بل نستطيع أن نعرف ذلك من نظام الطبيعة الثابت الذى لا يتغير. ان وجود المعجزة يجعلنا نشك فى وجود الله لان المعجزة ليست واضحة ومتميزة ومعرفتنا بالله معرفة واضحة ومتميزة ، كما أن المعجزة واقعة محدودة تدل على قدرة محددة ولا تثبت الله ووجوده وقدرته المطلقة • ان قوانين الطبيعة الثابتة هى اعظم دليل على وجود الله بل ان المعجزة نفسها لا تحدث خارج الطبيعة بل داخلها

---

pp. 761-7.

(٢) هو موضوع الفصل السابع بعنوان تفسير الكتاب
pp. 767-90.

(٣) pp. 773-7.

(١) pp. 767-70.

(٢) pp. 770-3.

مع أننا نصفها بأنها تفوق الطبيعة Surnaturel وبذلك يؤدى الايمان بالمعجزات الى الالحاد، ولم يستطع النبى الكاذب اقناع الناس بنبوته مع أنه أجرى المعجزات ولم يستطع العبرانيون تصور الله تصورا صحيحا بالرغم مما شاهدوا من معجزات على عكس الفلاسفة الذين حصلوا على معرفة واضحة متميزة عن الله من تصورهم لنظام الطبيعة الثابت وعندما يذكر الكتاب خلق العالم فانه يعنى اعتماده المطلق على الله لان أوامره هى قوانين الطبيعة ، وعندما يذكر ان شيئا حدث بمشيئة الله فانه يعنى أنه حدث طبقا لقوانين الطبيعة ولكنه لم يصرح بذلك فى نظرية فلسفية لأن مهمته اقناع الناس وحثهم على الطاعة لا اعطاؤهم معرفة نظرية ، ويرمى الى اثارة الخيال وتحريك النفوس لا الى المعرفة العلمية بالعلل القريبة (١).

وكثيرا ما خضعت المعجزات فى الكتاب المقدس الى أساليب الرواية وطرقها ، فمن النادر أن ينقل الراوى ما حدث بالفعل دون أن يزيد عليه شيئا خاصة اذا كان يتعدى حدود فهمه ، وكثيرا ما اختلفت روايتان لنفس الحادثة حسب تأثر كل راو بما شاهد وسمع ، لذلك يجب لتفسير المعجزة معرفة أفكار الرواة الأوائل وأول من قاموا بتدوينها ثم الفصل بين هذه الأفكار وشهادة الواقع والا لتم الخلط بين الواقع والخيال (مثل نزول الله من السماء فى عمود دخان على جبل سيناء وصعود الياس الى السماء فى عربة من نار تجرها خيول من نار) ، كما يجب دراسة أساليب البيان عند العبرانيين وطرق البلاغة وكثيرا من وجوه التشبيه والاستعارة والمجاز ، ولا يوجد فى الرواية ما يستعصى على النور الفطرى (٢) .

٧ ـ منهج التفسير : (٣)

لكل فرد الحرية المطلقة فى أن يؤمن بما يشاء وأن يتصور العقائد كما يريد وأن يفسر النصوص على مستوى فهمه ، لذلك يرفض سبينوزا سلطة الكنيسة وما تدعيه من حق فى تفسير الكتاب المقدس ويقترب من لوثر ، فالله لا يحرم الفرد حقه فى حرية البحث والتفكير والفهم والتفسير، ولقد تكيف الكتاب من قبل حسب عقلية الأنبياء وتكوينهم النفسى ومستوى فهم الجماهير فى عصرهم ، فالعبرة فى المؤمن بالسلوك لا بالعقائد النظرية فسلوك فاضل وعقيدة باطلة خير من عقيدة صحيحة وسلوك مشين .

ويعتمد سبينوزا فى تفسيرة للكتاب على الكتاب وحده طبقا للمبدأ البروتستانتى Sola scriptura دون الاعتماد على السلطة الممثلة فى آباء الكنيسة أو فى التراث الدينى ابان العصور لذلك نجد الرسالة مملوءة بالشواهد النقلية ، وتفسير الكتاب بغير الكتاب ادخال للبدع فى كلام الله ومنع لحرية التفسير وتأييد لهذه البدع بالسلطة الالهية كما يفعل اللاهوتيون ، ولو كانوا مخلصين حقا فى تفسيرهم لكانوا دعاة خير ولما آمنوا بالخرافة واحتقروا العقل ورأوا فى الكتاب الأسرار وتركوا النافع وأبقوا على التناقض والمعتقدات المنافية للعقل الصادرة عن انفعالات النفس . لذلك يقترح سبينوزا منهجا للتفسير مشابها لمنهج تفسير الطبيعة أى منهجا يعتمد على الملاحظة والتجربة وعلى المعطيات اليقينية ووضع الفروض واستخلاص النتائج ، وفى حالة الكتاب يكون منهج استقصاء الحقائق التاريخية اليقينية والانتهاء منه الى أفكار مؤلفى الأسفار وبذلك نضمن نتائجنا كما نضمن معرفتنا التى نحصل عليها بالنور الفطرى لأن كثيرا من موضوعات الكتاب مثل قصص الأنبياء لا يمكن معالجته بالنور الفطرى بل بالكتاب وحده كما نعرف الطبيعة من

الطبيعة نفسها حتى الحقائق الخلقية التى يمكنها اثبات ألوهية الكتاب يجب استخلاصها من الكتاب نفسه (١) .

ويتضمن البحث التاريخى خطوات ثلاثة :

١ – معرفة خصائص وطبيعة اللغة التى دونت بها أسفار الكتاب المقدس والتى تحدث بها مؤلفوها، حتى يمكننا استعمال النصوص حسب الاستعمال العرفى لها ، لذلك يجب معرفة اللغة العبرية للعهدين القديم والجديد على السواء .

٢ – جمع النصوص وفهرستها فى موضوعات رئيسية حتى يسهل استعمال النصوص التى تتعلق بنفس الموضوع ، أى يجب تحويل الكتاب الى معاجم مفهرسة حسب الموضوعات أو حسب الوضوح والغموض فتوضع الآيات الواضحة معا والمتشابهة معا . والوضوح هنا هو فهم النص حسب السياق لا حسب العقل لأن التفسير هو فهم النص لا معرفة الحقيقة أو ادراك الأشياء الطبيعية ويتم التفسير ابتداء من اللغة بصرف النظر عن معارضتها للعقل أو اتفاقها معه ، وكلما كان التفسير حرفيا كان أفضل فمثلا آية « الله نار » آية واضحة مع أن معناها يعارض العقل .

٣ – معرفة الظروف والملابسات التى كتبت فيها الرواية أى معرفة حياة مؤلف السفر وتقاليده وعاداته وأخلاقه والغاية من سفره ومناسبته وعصره ولغته ثم مصير السفر ونفسه ، جمعه ونقله ونسخه والاختلافات بين النسخ وتقنينه حتى نعرف موهبة المؤلف الأدبية وحتى لا نخلط بين التعاليم الالهية والأساليب البيانية أو بين آيات التشريع وآيات الأخلاق وذلك لتحديد درجة سلطته ودرجة الوثوق به (٢) .

وبعد القيام بهذا البحث التاريخى نبدأ بدراسة أكثر الأشياء عمومية كالوحى ووجود الله ثم الانتقال الى الموضوعات الأقل شمولا مثل الأخلاق التى يمكن استنباطها من المبادىء العامة الأولى وهو المنهج المتبع فى العلم الطبيعى أيضا . فاذا وقع تشابه أو غموض فى الآية رجعنا الى المبادىء العامة ، واذا حدث تعارض فى الآيات رجعنا الى المناسبة والمكان والزمان الذى كتبت فيه هذه النصوص . ومن الصعب دراسة الأمور النظرية المحضة التى لم يتفق الأنبياء عليها والتى كيفوها حسب معتقداتهم وآرائهم الخاصة . وأخيرا نلجأ الى التفسير اللغوى لأن الكلمات محفوظة فى التراث اللغوى ولا يمكن تبديل معانيها كما يحدث فى تبديل النصوص .

ولكن منهج التفسير اللغوى تقابله مشاكل وصعوبات ثلاثة :

١ – لم يترك علماء اللغة معاجم نعرف منها مبادىء اللغة العبرية ، فليست لدينا معاجم أو كتب فى القواعد أو فى الخطابة ، فقد فقدت الأمة العبرية كل شىء ولم يبق الا بعض المنوعات الأدبية وضاعت أسماء النباتات والحيوانات والطيور والأسماك ، وهنا أسماء وأفعال كثيرة فى التوراة مجهولة أو مشكوك فيها ، كما لا نعلم أساليب اللغة وطرق بيانها ولا نستطيع معرفة معانى النصوص طبقا لاستعمال الكلمات ، هذا بالاضافة الى طبيعة هذه اللغة نفسها وغموضها لأسباب يعرفها علماء اللغة (استبدال الحروف التى لها نفس المخرج ، تعدد معانى حروف العطف والظروف، غياب الأزمنة ، غياب الحروف المتحركة ، غياب التنقيط والتشكيل) . ولا توجد طريقة لتحديد معنى النصوص الا جمعها وهى طريقة لا توضح الا النصوص الغامضة مصادفة ولا يمكن

(١) pp. 777-83.

(٢) pp. 784-5.

استعمالها الا فى الأمور العملية دون الأمور النظرية •

٢ ـ نجهل الظروف والملابسات لكل سفر ، فلا نعلم مؤلفى الاسفار وموضوعاتها ورواتها ومن تناقلوها ، وعدد نسخها والاختلافات بينها ومصادرها خاصة اذا كانت تروى أشياء غامضة لا يمكن تصديقها •

٣ ـ لا نملك أسفار الكتاب بلغتها الأصلية التى كتبت بها لأول مرة ، فقد كتب انجيل متى وكذلك رسالة بولس الى العبرانيين باللغة العبرية وقد ضاع النص الأصلى لكليهما ، وكذلك لا نعلم بأى لغة كُتب سفر أيوب اذ يؤكد ابن عزرا أنه كُتب بلغة أخرى ثم ترجم الى العبرية[١] •

تمنعنا اذن هذه الصعوبات من معرفة الأشياء التى لا يمكن ادراكها والتى لا يمكن تخيلها فحسب ولاكنها لا تمنعنا من تصور الأشياء التى يمكن ادراكها بالذهن • لقد كتب اقليدس أشياء سهلة تُنقل الى كل لغة ولا يهم أن تُعرف اللغة معرفة كاملة ولا يهم أيضا معرفة حياته وعاداته وتقاليده وظروف الكتابة ومناسبتها والغاية منها وطرق جمعها وكذلك الكتابات التى تتحدث عن المدركات الحسية أو عن التعاليم الخلقية • وبهذا المعنى لا يحتاج تفسير الكتاب الا الى النور الفطرى الذى يقتضى استنباط الأشياء الغامضة من الأشياء الواضحة وهو منهج بسيط للغاية لا يحتاج الى ما يدعيه البعض ويسمونه بالنور الذى يفوق الطبيعة La Lumiére Surmaturelle فهو بدعة انسانية محضة لا هبة من الله للمؤمنين فقد خاطب الأنبياء المؤمنين والكفار على السواء • لذلك كل ما يناقض العقل أو الطبيعة يجب حذفه لأنه زيادة من الراوى لاثارة النفوس وتحريك الخيال[٢] •

وأخيرا يرفض سبينوزا منهج موسى بن ميمون فى التفسير ومؤداه أن لكل نص معان عديدة بل ومتعارضة ويكون أصوبها أكثرها اتفاقا مع العقل فاذا تعارض العقل مع الفعل (المعنى الحرفى) يجب تأويل النص وهو المنهج الذى انتهى اليه الفلاسفة المسلمون والذى عارضه ابن تيمية فى «منهاج السنة» وفى «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول» ، وقد كان بن ميمون فى هذه الناحية تلميذ المسلمين ، وقد وفق ابن ميمون بين نص الكتاب المقدس وبين نظرية أرسطو فى قدم العالم بل أن النص فى رأيه يدعو الى ذلك صراحة • يرفض سبينوزا هذا المنهج لأنه يقتضى وجود أشياء كثيرة فى الكتاب لا يمكن معرفتها بالنور الفطرى كما يقتضى التسليم بنور يفوق الطبيعة ، وتحتاج العامة التى تجهل طرق الاستدلال والبراهين الى استفتاء الفلاسفة والاعتقاد بآرائهم فى تفسير الكتاب وبذلك تقوم سلطة كهنوتية جديدة يحترمها العامة • صحيح أن سبينوزا يطالب بمعرفة الغة العبرية ولكنها كانت لغة العصر عند العامة التى كانت تجهل الحقائق الفلسفية • وليست حقائق الوحى قاصرة على الفلاسفة فقط كما يقول ابن ميمون لأن السعادة والفضيلة عامة ويستطيع الجميع ادراكها وبأى لغة كانت دون شهادة العشرين أو العلماء كما يفترض منهج ابن ميمون اتفاق الأنبياء فيما بينهم وأنهم فلاسفة كبار وهذا غير صحيح ، كما يفترض استحالة

(١) pp. 785-9.

(٢) هو موضوع الفصل الثامن بعنوان (البرهنة على أن الاسفار الخمسة وأسفار يشوع والقضاة وروث وصموئيل والملوك ليست صحيحة وهل لهذه الاسفار مؤلف واحد أم مؤلفون كثيرون (pp. 790-803.) والفصل التاسع بعنوان أبحاث أخرى حول نفس الاسفار ! هل عزرا هو آخر من دونها ، وهل التعليقات الهامشية الموجودة فى المخطوطات العبرية دروس مختلفة pp. 803-20. والفصل العاشر بعنوان (فحص باقى أسفار العهد القديم بنفس الطريقة)

تفسير الكتاب بالكتاب ويسمح بتفسيره حسب آرائنا السابقة كما يسمح بتبديل المعانى الحرفية وتأويل النصوص وأن كثيرا من المعانى متذعن العقل ، كما يزعزع منهج ابن ميمون ثقة العامة فى الكتاب واعتقادهم فيه[1] .

٨ ـ النقد التاريخى للكتاب المقدس[2] :

يرى سبينوزا أن البحث التاريخى للكتاب يسبق الايمان بألوهيته ، فالبحث العلمى النقدى هو الضامن لصحة الكتاب من حيث هو وثيقة تاريخية تحتوى على الوحى الالهى ، وبالتالى يعارض سبينوزا وجهة النظر التقليدية المحافظة التى تؤمن بألوهية الكتاب قبل تطبيق قواعد المنهج التاريخى ، وهو العلم الذى جهله القدماء واكتشفه المحدثون مع أن الناس لا يتقبلون الآن بسهولة تحكيم العقل فى الكتاب لطول ايمانهم بألوهيته قبل الفحص والتمحيص .

فاذا طبقنا قواعد المنهج التاريخى على الكتاب نجد أن موسى ليس مؤلف أسفار التوراة الخمسة المعروفة باسمه على الرغم من تأكيد الفريسيين لذلك حتى أن ابن عزرا وهو العالم الناقد الحر لم يجرؤ على الجهر بذلك ، وقد ألفه انسان آخر عاش بعد موسى بمدة طويلة . ويذكر ابن عزرا الاسباب التى دعته الى الشك فى نسبة الاسفار الخمسة الى موسى وأهمها :

١ ـ لم يكتب موسى مقدمة سفر التثنية لأنه لم يعبر نهر الأردن .

٢ ـ كان سفر موسى مكتوبا على حائط المعبد الذى لم يتجوز اثنى عشر حجرا أى أنه كان أصغر بكثير مما لدينا الآن .

٣ ـ قيل فى سفر التثنية : « وقد كتب موسى التوراة » ولا يمكن أن يقول موسى كذلك أن كان هو مؤلفها .

٤ ـ فى سفر التكوين يعلق الكاتب قائلا : « وكان الكنعانيون فى هذه الأرض » وهذا يدل على أن الوضع الآن قد تغير عما كان عليه وقت تدوين الكتاب أى بعد موت موسى وطرد الكنعانيين وبذلك لا يكون الراوى هو موسى .

٥ ـ فى سفر التكوين سُمى جبل «موريا» جبل الله ولم تحدث هذه التسمية الا بعد بناء المعبد وهو ما تم بعد موت موسى .

٦ ـ فى سفر التثنية وُضعت بعض الآيات فى قصة أوج توحى بأن الرواية كتبت بعد موت موسى بمدة طويلة اذ يروى المؤلف أشياء حدثت منذ زمن بعيد . ويزيد سبينوزا على هذه الملاحظات ملاحظات أخرى أهمها :

١ ـ كتابة الأسفار بضمير الغائب لا بضمير المتكلم .

٢ ـ مقارنة موت موسى وحده بموت الأنبياء التالين له .

٣ ـ تسمية بعض الأماكن بأسماء مختلفة عما كانت عليه أيام موسى .

٤ ـ استمرار الرواية فى الزمان بعد موت موسى .

وقد قرأ موسى « سفر العهد » على الشعب فى جلسة قصيرة مما يدل على أن ما كتبه موسى أقل بكثير مما لدينا الآن ، ثم شرح موسى هذا السفر الاول ودون شرحه فى « سفر شريعة الله » ثم أضاف عليه يشوع شرحا آخر وقد ضاع هذا السفر الذى يجمع بين سفرى موسى ويشوع كذلك لم يكتب يشوع السفر المسمى باسمه بل كتبه انسان آخر يريد كتابة سيرته واثبات

(1) pp. 798-9.
(2) pp. 799- 20.

فضله وشهرته ، وتمتد الرواية بعد موته بقرون عديدة ويوجد جزء منها فى سفر القضـاة (مما يدل على وجود روايات تضم فى العهد القـديم باعتبـاره السجل الوطنى لبنى اسرائيل) • ولم يكتب القضاة السفر المسمى باسمهم وتدل مقدمة الاصحاح الحادى والعشرين على أن مؤرخا واحدا كتبه قبل حكم الملوك • ولم يكتب صموئيل سفره لأن الرواية تمتد بعد موته بقرون عديدة، كذلك لم يكتب الملوك أنفسهم سفرهم بل أخذ من كتب « حكم سليمان » و « أخبار ملوك يهوذا » ، و « أخبار ملوك اسرائيل » التى تروى قصصا قديمة سابقة على عصر كاتب السفر [1] •

لقد كتب هذه الأسفار جميعها شخص واحد ليقص تاريخ العبرانيين منذ نشأتهم حتى هـدم المدينة ويدلنا على ذلك وحدة الغرض وارتبـاط الروايات وتدوينها المتأخر بعد الحـوادث بعـدة قرون • ويظن سـبينوزا أن ابن عزرا هو هذا الشخص لأن الروايات كلهـا تنتهى قبله ، وقد أعمل ابن عزرا كل جهده فى البحث فى الشريعة وفى عرضها كما يذكر التراث القديم ، ويذكر سفر عزرا نفس الشيء • ولكنه لم يعط للأسفار صيغتها النهائية بل جمع الروايات من كتب أخرى ونقلهـا دون ترتيب أو تحقيق ، وهذا ما يفسر وجود بعض الروايات بصياغات مختلفة فى عدد من الاسفار • وتثبت ألفاظ الروايات أنها مكتوبة بعد وقوع الحوادث بزمن طويل • هذا الاضطراب الزمانى Achronisme هو الوسيلة التى يتبعها سبينوزا وبعض النقد المسلمين (ابن حزم وابن تيميـة) فى التعـرف على وقت كتـابة الرواية والشك فى نسبتها الى المؤلف المعـروف • ولم ينجح الأحبـار فى التـوفيق بين الروايات لأن العبـرانيين الأوائل كانوا يجهلون لغتهم ولم يعرفوا ما هو النظام فى الرواية ، ولم يكن هناك منهج أو قاعدة تتبع فى تفسير الكتاب ، وكان كل كاتب أو راو ، يفسر حسب هواه • ولم تحتفظ الأجيال الماضية حتى بهذه الأسفار فتسربت اليها الأخطاء وقد لاحظ النسـاخ الأوائل شروحـا مشكوكا فيها وفقرات ساقطة مع أنهم لم يلاحظوها كلهـا الا أن هـذه الأخطاء لا تؤثر فى جـوهر التعاليم الخلقية • ويدعى البعض أن هذه الاخطاء سر الهى أبقاه الله فى كتابه بعنايته فيؤولون النقاط والحروف والعلامات حتى المسـافة البيضـاء التى يتركها الناسخ! اما التعليقات الهامشية فهى قراءات محتملة وضعها الناسخ عندما التبست عليه الحروف فى القراءة أو بعض الكلمات القديمة التى لم تعد تستعمل أو بعض الكلمات المكشوفة التى تحرج الناسخ من وضعها فى النص الأصلى [2] •

وقد حدث لباقى أسـفار العهد القـديم نفس الشيء • فقد كتب سفر أخبار الأيام بعد عزرا بمدة طويلة ونجهل مؤلفه وعقيـدته بل نعجب لادخـال هذا السـفر فى الكتـاب المقدس واستبعاد أسـفار الحكمـة وطوبيا التى قيل عنها منتحلة • أما سفر المزامير فقد جمع وقسم الى خمسة أجزاء بعد بنـاء المعبـد وهو الوقت الذى جمعت فيه أمثـال سـليمان وقد أراد الأحبـار استبعاده مع سفر الجامعة • وقد أخذ سفر أشعيا من كتب أخرى ورتب فى نظام مخالف لترتيب الأنبياء • ولا يحتوى السفر على جميع النبوات ، وقد يكون هذا السفر كله أسطورة • أما سفر ارميا فهو مجموعة من النصوص مأخوذة من كتب متعـددة بلا ترتيب أو مراعاة للأزمنـة وبعضـها

---

pp. 820-33.

١ موضوع الفصـل الثانى عشر "المعنى الحقيقى للشريعة الالهية . لم سمى الكتاب مقدسا وظن عنه كلام الله . وصل الينا الكتاب من حيث احتوائه كلام الله دون تحريف) pp. 842-51.

مستمد من سفر باروخ ويقال ان ارميا نفسه هو الذى أملاه عليه ولا يذكر باروخ الا [illegible] من نبوته • وتدل الاصحاحات الأولى على ان سفر حزقيال مجرد شذرات كما تدل حروف العطف على الأجزاء الناقصة ويدل أول السفر على استمرار النبوة لا على أولها كما يذكر يوسف المؤرخ بعض الوقائع عن حزقيال لا يذكر منها السفر شيئا • أما سفر هوشع فقد كُتب بعد موته بمدة طويلة ولا يذكر الا جزءا ضئيلا من نبوته ، كما لم تذكر مجموعة أسفار الانبياء كل النبوات • ويظن البعض أن موسى هو مؤلف سفر أيوب، وأن القصة كلها مَثَل ، وهذا هو رأى موسى بن ميمون وبعض الأحبار ويرى ابن عزرا أنه تُرجم الى العبرية من لغة أخرى لتشابه قصته مع قصص الوثنيين وأشعار المأساة • وقد كتب دانيال نفسه سفره المعروف باسمه ابتداء من الاصحاح الثامن والأصحاحات السبعة الأولى مجهولة المؤلف وربما كُتب باللغة الكدانية ، ثم يأتى سفر عزرا الأول كحلقة تابعة لسفر دانيال ليقص تاريخ العبرانيين منذ الأسر الاول ويوحى بأن كاتبيهما واحد • ثم يأتى سفر أستير لنفس المؤلف السابق وهو أيضا مؤلف سفر نحميا ، أخذها من سجلات الأحبار والقضاة والأمراء ويُحتمل أن تكون من من وضع الصدوقيون مما يدل على رفض الفارسيين لها • أما من حيث التقنين ، فلم يحدث تقنين لأسفار العهد القديم قبل عصر المكابيين وقد اختيرت الأسفار المقننة حاليا من بين عديد من الأسفار الأخرى بقرار من الفاريسيين فى المعبد الثانى تأييداً لعقائدهم ورفضا لعقائد الصدوقيين (قبلوا سفر دانيال لانه يتنبأ بحشر الاجساد وهو ما ينكره الصدوقيون) [1] •

٩ ـ النبى والحوارى :

ينتهى سبينوزا من دراسة العهد القديم ثم يبدأ دراسة العهد الجديد ويركز دراسته على موضوع واحد جوهرى وهو الفرق بين النبى والحوارى وهو ما غفله المسيحيون انفسهم أعنى الخلط بين الوحى والالهام ، بين النبى والصحابى (باصطلاح المسلمين) وفى العهد الجديد نفسه بين الأناجيل والرسائل • ويأخذ سبينوزا بولس أقوى شخصية بين الحواريين كمثل للمقارنة بين الحوارى وبين النبى موسى أو المسيح• فمن ناحية الأسلوب يختلف أسلوب النبى فى الأنجيل عن أسلوب الحوارى فى الرسائل ، يؤكد النبى أنه يتحدث بناء على تفويض من الله أما الحوارى فانه يتحدث باسمه ويعبر عن آرائه الشخصية ، والنبى لا يخطىء أما الحوارى فيخطىء ويصيب، والنبوة من عند الله أما رسالة الحوارى فمن عنده ، والنبوة يقينية ودعوة الحوارى ظنية يمكن الشك فيها باعتراف الحوارى نفسه • ومن حيث الطريقة فى التعبير لا يستدل النبى بل يتحدث معتمدا على السلطة الالهية اما الحوارى فيستدل ويناقش ويجادل ويحاج • ويبلغ النبى حقائق النبوة التى عرفها بطريق الوحى أما الحوارى فانه يعتمد على العقل أو على النور الفطرى • فلو قارنا موسى ببولس لوجدنا أن موسى لا يستدل عقلا بل يدعو الى الفضيلة ولا يتحدث باسمه بل باسم الله ، وقد يقترب فى بعض الأحيان من الاستدلال لو كانت معرفته بحقائق الوحى أقرب الى المعرفة الفطرية لان معرفة الأنبياء وحيا من فوق الطبيعة • أما بولس فلم يكن لديه وحى من فوق الطبيعة بل عبر عن آراء شخصية له ونداءات انسانية ودعوات للأخوة والفضيلة وهذا مايعترف به بولس نفسه • وقد أرسل الله موسى بالفعل

---

(٢) موضوع الفصل الحادى عشر بعنوان هل كتب الجواريون رسائلهم بصفتهم حواريين وأنبياء ، أم بصفتهم فقهاء • دور الحواريين pp. 833-4.

واختاره أما بولس فانه بشر بمحض ارادته واختار الأماكن التى بشر فيها بمحض ارادته. لذلك بشر الحواريون باعتبارهم فقهاء ورجال الدين لا باعتبارهم أنبياء وتبدأ رسائلهم بتأكيد صفتهم كحواريين لا كأنبياء وتأكيد للسلطة لجذب انتباه القارىء أو السامع • فاذا تحدث الحوارى عن « روح الله » فانه يتحدث عن آرائه الشخصية كما يدل السياق عرفها بالنور الفطرى الذى يستطيع ادراك جوهر المسيحية وهو الدعوة الخلقية ، لذلك لم يكن الحواريون فى حاجة الى نور يفوق الطبيعة • وقد اختار كل حوارى الطريقة التى تلائمه فى نشر الدعوة وتحذير الناس ، فيدعو بولس مثلا الى الخلاص بالايمان وحده دون الأعمال ويؤكد عقيدة القدرية •

أما يعقوب فانه يدعو الى الخلاص بالاعمال لا بالايمان وحده معارضا بذلك نظرية بولس • وقد كان هذا الاختلاف فى الأسس سببا للتفرقة وللتشيع وظهور الطوائف المسيحية المختلفة داخل الكنيسة وخارجها ، ولن يقضى على هذه التفرقة الا اذا توقفت الكنيسة عن التدخل فى الأمور النظرية وعادت الى العقيدة البسيطة التى دعى اليها المسيح ولم يستطع الحواريون السير فى أثره بعد أن نسوا الانجيل وأنسوه الناس معهم • وقد كان بولس اكثر الحواريين تحزبا لتأسيس المسيحية النظرية العقائدية المذهبية وهى المسيحية الرسمية وبذلك يعتبر بولس مؤسس المسيحية وجعل له أنصارا وخصوما ، كان أنصاره دعامة المسيحية الرسمية وخصومه دعاة العودة الى المسيحية الأولى التى دعا اليها المسيح أى المسيحية الخلقية •

١٠ – الوحى المكتوب والوحى المطبوع [1] :

بعد ان وضع سبينوزا الكتاب موضع البحث والتمحيص وانتهى الى كثير من النتائج «التقدمية» فى علم النقد التاريخى قدم لونا آخر من ألوان النقد الذى يقوم على اتفاق مضمون النص الدينى مع التجربة الانسانية بصرف النظر عن مدى الصحة التاريخية للرواية وقال بالوحى المطبوع فى القلب الذى لا يتغير وهو شريعة الحب وقانون العدل والاحسان ، وهذا الوحى يند عن النقد التاريخى لانه ليس وحيا مكتوبا بالكلمات والحروف بل وحى « مسطور » فى القلب ومفطور فى النفس الانسانية ، فاذا وقع التبديل أو التحريف فى الوحى المكتوب فان الوحى المطبوع فى القلب لا يتغير ولا يتبدل ، واذا كان الوحى المكتوب قد أرسل لأمة بعينها فان الوحى المطبوع قد أعطى للانسانية جمعاء ، واذا كان الوحى المكتوب يعرف عن طريق النبوة فان الوحى المطبوع فى القلب يعرف بالنور الفطرى • لقد نقض الميثاق المكتوب ولكن الميثاق الروحى مازال قائما فهو صورة الله فى الروح الانسانية • ولقد أعطى العبرانيون ميثاقا مكتوبا لانهم كانوا فى مرحلة الطفولة وما أن بلغوا مرحلة النضج حتى أخبرهم موسى بأن الميثاق مطبوع فى قلوبهم [1]. وينتج عن ذلك الحقائق الثلاثة الآتية:

١ – يوصف الكتاب بأنه مقدس أو الهى لو كان غرضه التقوى والتدين ، ويكون الهيا أو مقدسا عندما يمارس الناس حياة الفضيلة ويطبقون تعاليم الدين فاذا توقف الناس عن ذلك لم يعد الكتاب الهيا أو مقدسا ، أى أن الكتاب لا يكون مقدسا الا بقدر ما يؤثر فى الناس فالقداسة هى

---

(١) موضوع الفصل الثالث عشر بعنوان «لايحتوى الكتاب الا على تعاليم بسيطة للغاية» ولايحث الا على الطاعة وتقتصر عقيدته فى الطبيعة الالهية على مايستطيع الناس استخدامه فى حياتهم كقاعدة عملية » pp. 852-59. والفصل الرابع عشر بعنوان «ماهو الايمان ؟» من هم المؤمنون ؟ تحديد أسس الايمان والفصل بين الايمان والفلسفة pp. 859-68.

أن يكون الانسان تقيا والألوهية أن يكون الانسان الهيا ، أى أن القداسة للاستعمال ولا تعنى الكلمات شيئا الا فى الاستعمال .

٢ ـ لا يوجد كلام الله فى عدد معين من الكتب بل هو كلام الله الشامل المرسل لكل الناس لا يظهر فى صورة طقوس أو شعائر بل فى حياة الفضيلة وفى ممارسة العدل والاحسان وقد سميت الشريعة كلام الله لأنها تدعو الى الدين الصحيح ومستمدة من نور النبوة وهذه هى النقلة من العهد القديم الى العهد الجديد، فالقديم هو الشريعة المكتوبة ، قانون موسى والعهد الذى قطعه الله معه ، والجديد هو الوحى المطبوع فى القلوب ، شريعة عيسى والعهد الابدى المفطور فى النفوس .

٣ ـ لا يتغير الكتاب ولا يتبدل من حيث دعوته للطاعة والاخلاص وهو الكتاب المعنوى لا اللفظى لذلك لا تنقص الوهية الكتاب أو تزيد بتغيير الالفاظ وتبديلها ، وبهذا المعنى نقول ان الكتاب وصل الينا بلا تبديل أو تحريف والذى يمكن تلخيصه فى « حب الجار » فهو أساس الدين كله الذى لا يقع فيه الخطأ ، ولا يوجد الخلاف الا فى الموضوعات النظرية التى يشقى من أجلها جميع الناس . وهكذا ينتهى سبينوزا صوفيا اشراقيا أوغسطينيا ويصدر رسالته بآية من اصحاح يوحنا الصوفى الاشراقى « وبهذا نعلم انا نثبت فيه وهو فينا بأنه آتانا من روحه » (يوحنا ٤ : ١٣) .

١١ ـ النظر والعمل (١) :

يرى سبينوزا ان تعاليم الكتاب بسيطة للغاية تدعو الى الطاعة وأن افكاره عن الطبيعة الالهية لها هدف عملى فى الحياة اليومية ، لذلك لم يكن للأنبياء ذكاء خارق للعادة بل خيال خصب . ولهذا السبب أيضا لم يذع الوحى أسرارا فلسفية بل أفكارا بسيطة للغاية ، ولقد أعطى الكتاب تعاليم يسهل على أى فرد ادراكها ، لذلك لم يستعمل منهج الاستنباط بل أعطى بعض الحقائق للاعتقاد بها وأيدها بالتجربة أى بالمعجزة، لم يفتح الدين مطلقا أكاديمية للمناقشة حول نظريات الوثنيين التى يرجع أغلبها الى أفلاطون وأرسطو ، بل ان العرفة العقلية بالله أى المعرفة الصحيحة لم تعط لكل المؤمنين مع أن الطاعة قد دعى اليها الجميع ، كما أن الكتاب لم يطلب من المؤمنين الا معرفة العدل والاحسان وهذا ما أثبته الكتاب نفسه ، فلم يعرف العبرانيون ماهية الله بل عرفوا آثاره وسموه « ياهو » وهو الاسم الذى يدل على صلة الله بمخلوقاته ، ولم يعرف صفات الله معرفة عقلية خالصة الا الخاصة ، فالناس سواء فى الطاعة ولكنهم يختلفون فى الحكمة ، الله اذن هو نموذج للحياة الصحيحة وللسلوك القويم ، صحيح أن المعرفة العقلية تعطينا طبيعة الله فى ذاته ولكننا لا نستطيع أن نأخذ هذه الطبيعة كقاعدة للسلوك لذلك لم تكن المعرفة العقلية شرطا من شروط الايمان ويستطيع الناس أن يخطئوا فى هذه المعرفة دون أن ينقص ذلك من ايمانهم شيئا ، ولا حرج فى أن تكييف تصورنا لله حسب احكام الأنبياء السابقة ومعتقداتهم ، ولا حرج في التشبيه فهو وسيلة ادراك الجمهور بالخيال فلا يدرك التنزيه الا الخاصة عن طريق المعرفة العقلية ، ولا يجوز الالتجاء الى التفسير المجازى كما يفعل اللاهوتيون بل على الجمهور أن يؤمن بالصور الذهنية ايمانا حرفيا والا لفسرنا كل ما يتعارض مع النور الفطرى تفسيرا مجازيا وكأن الوحى لم يرسل الى

---

(١) pp. 852-9.

عامة الناس بل الخاصة وحدهم • لذلك ارتبط الايمـان بالعمل لا بالنظر ويكون سـبينوزا مع يعقوب ضد بولس ، فالايمـان يصـدق بقـدر ما يحث على الطاعة ويمنع عن العصـيان ، واذا دفع الايمان الى العصيان كان ايمانا كاذبا مهمـا كان لصاحبه من نظريات فلسفية صحيحة• مهمة الوحى اذن عملية لا علمية كما يقـول الغـزالى والصوفية من ورائه [1] •

لذلك ، كل انسان حر فى أن يؤمن كمايشاء وأن يكيف ايمانه حسب معتقـداته وأرائه وألا يسلب الآخرين هـذا الحق لأن هنـاك فرقا بين الايمان والعقل أو بين الدين والفلسفة فالايمان يؤدى الى الطـاعة ، ولقـد حـاول موسى ربط العبرانيين بعهد وبقسم ولم يحاول اقناعهم بالطرق العقلية ودعا الى طاعة الشريعة طمعـا فى الثواب وخوفا من العقاب ولكن هذه الوسيلة لا تؤدى الى المعرفة العقلية أو الى الطاعة الفعلية ، لذلك دعا الانجيل الى الايمان والطاعة جوهر الايمـان أى حب الجار وهى الوصية الاولى التى تخـرج منها جميع الوصايا الاخـرى التى يقـوم عليها الايمان الشامل الذى يعتنقه كل النـاس والذى يمكن تلخيصه فى النقاط السبع الآتية :

١ ـ وجـود اله خير رحيم نمـوذج للحيـاة الحقة •

٢ ـ وحدانية الله التى تجعله جديرا بالاحترام والتبجيل •

٣ ـ حضور الله فى كل مكان لا يخفى عليـه شىء ويخضع له كل شىء •

٤ ـ قدرة الله على كل شىء لا معارض لمشيئته يهب الفضل لمن يشاء وتجب له الطاعة •

٥ ـ عبـادة الله وطاعتـه التى تتم بممارسـة العدل والاحسان أى حب الجار •

٦ ـ خلاص المطيعين لهذه القاعدة •

٧ ـ يغفر الله للتائبين فكل بنى آدم خطاؤون وخير الخطائين التوابون • بهذه المبادىء السبعة يحدد سبينوزا ما يمكن للبشر جميعا الاتفاق عليه من المبادىء النظرية ولا يهم بعد ذلك أن يكون الله روحا أو نارا أو نورا ولا شـأن لنـا بالعلم الالهى وماهية الله وقدرته وأثره على الحرية أو الضرورة والا تعرض الايمان للخطر ، فمقياس الايمان صدقه لا حقيقتـه [2] • وبهذه الدعوة الخلقية يسـاير سـبينوزا الدعوة البروتسـتانتية التقليدية فى تصورها لجوهر المسيحية خاصة عند هـارناك Harnack ، وهـو ما دعـا اليـه برجسون أيضا من أن حب الجار حقيقـة أبدية مطلقـة مهما شككنا فى العقائد المسيحية أو حتى فى وجود المسيح نفسه •

١٢ ـ العقل واللاهوت :

يعود سـبينوزا من جـديد ويركز على هـذه المشكلة التقليدية فى فلسـفات الاديان ألا وهى الصلة بين العقل واللاهوت أو بين الفلسفة والدين أو بين العقل والايمان ولكن سبينوزا يتحدث عن اللاهوت أى الصـورة العقليـة الزائفـة للدين وللايمان ما دامت مهمـة الايمـان هى الحث على الطاعة حبا للجار وممارسة للعدل والاحسان ، يرى سبينوزا الا صلة هناك بين العقل والايمان، بين الفلسفة والدين أو كما يقول هو بين الفلسفة من ناحية وبين الايمان واللاهوت من ناحية أخرى، اذ يقـوم كل علم على مبـادىء مختلفة اختـلافا جذريا عن المبادىء التى يقوم عليها العلم الآخر : غاية الفلسفة هى الحقيقة وغاية الايمان الطاعة• تقوم الفلسفة على مبادىء وأفكار صحيحة وتعتمد على الطبيعة وحدها ويقوم الايمـان على التاريخ

---

[1] pp. 868-70.

[2] pp. 870-4.

وفقه اللغة ويعتمد على الكتاب والوحى وحده •

ويعرض الباحثون الذين لا يفرقون بين الفلسفة والنظرية الى المشكلة الآتية : هل الكتاب تابع للعقل أم العقل تابع للكتاب ؟ وبعبارة أخرى هل يجب توفيق معنى الكتاب طبقا للعقل أم توفيق العقل على الكتاب ؟ يقول الشكاك الذين ينكرون يقين العقل بالنظرية الثانية التى تجعل العقل تابعا للكتاب ويقول القطعيون بالنظرية الاولى التى تجعل الكتاب تابعا للعقل ويرى سبينوزا أن كلتى النظريتين خاطئتان • كلتاهما تزيف العقل والكتاب ، فالكتاب لا يعلم الافكار الفلسفية بل يدعو الى الايمان الصادق وقد تكيف حسب عقلية الانبياء والعامة فاذا وفقنا الكتاب مع العقل لنسبنا الى الانبياء كذبا لم يقصدوها ولم يفكروا فيها ولفسرنا أقوالهم تفسيرا خاطئا واذا جعلنا الفلسفة فى خدمة اللاهوت لاضطررنا الى قبول الاحكام السابقة للعصور الماضية على أنها حقائق الهية • كلتا النظريتان اذن خاطئتان الاولى باعتمادها على الفعل والثانية باغفالها العقل • وأول من أراد توفيق الكتاب طبقا للعقل من الفاريسيين كان موسى بن ميمون ولكن غالبيتهم رفضت نظريته وتبنت نظرية يهوذا البكار الذى أراد تجنب خطأ ابن ميمون فوقع فى الخطأ المقابل وجعل العقل خادما للكتاب وخاضعا له كلية [1] •

يرى البكار انه لا يجب تفسير أى نص من الكتاب تفسيرا مجازيا بحجة أن المعنى الحرفى يعارض العقل ، ويمكن القيام بهذا التفسير اذا ما عارض النص الكتاب نفسه طبقا للقاعدة الآتية : يجب قبول كل ما يدعو اليه الكتاب من عقائد ويؤكده بالنص الصريح على أنه حق وذلك بناء على سلطة الكتاب وحده • فلا يوجد تعارض بين العقائد فى الكتاب ولكن قد يقع التعارض فى نتائجها فحسب مثل بعض الآيات التى توحى بتعدد الآلهة أو بمسيحية الله • ان منهج البكار له الفضل اذن فى تفسير الكتاب بالكتاب ولكن هل ينبغى لذلك هدم العقل ؟ اننا نستطيع بعد تفسير الكتاب بالكتاب اصدار حكم العقل على ما نفهم بالقبول أو الرفض • اننا اذا خضعنا للكتاب خضوعا أعمى نكون حمقى واذا خضعنا له خضوعا عاقلا نكون قد حكمنا العقل فى ايماننا بالكتاب ، ان العقل ، هذه الهبة الالهية الرائعة لا يمكنه أن يخضع لحرف مائت خاضع للزيف الانسانى ، ولا يقتضى الدفاع عن الايمان الغاء العقل ضرورة. ان منهج البكار يجعلنا نشك فى الكتاب لأنه يدعونا الى ترك العقل خاصة وأن الكتاب مجموعة من الروايات والاسفار كتبت فى مناسبات مختلفة وفى عصور متعاقبة لجماهير مختلفة من كتاب عديدين لاغراض متباينة • ونحن فى حاجة الى العقل حتى للتفسير المجازى وايجاد قرينة تثبت صدقه فى حالة تعارض النصوص والاثبات أن النص الحرفى وصل الينا بلا تحريف ولاثبات صدق الأيات أو كذبها لان التعارض بينها حقيقى لا ظاهرى • فكيف يكون الله غيورا ، وكيف يكون جسما وكيف يكون فى مكان وزمان ؟ الله نار ، الله لا يشابه الاشياء الحسية ، قضيتان كليتان متناقضتان تثبت الأولى ما تنفيه الثانية [2] •

وهكذا يرفض سبينوزا منهج البكار التقليدى المحافظ ويفنده تفصيلا دون أن يرفض منهج ابن ميمون الذى يجعل الكتاب تابعا للعقل وليس معنى ذلك قبول سبينوزا منهج ابن ميمون وان كان متعاطفا معه لأن سبينوزا يفصل بين العلمين فليس اللاهوت خادما للعقل وليس العقل خادما للاهوت

---

(1) pp. 874-80.

(2) موضوع الفصل السادس عشر بعنوان الاسس التى تقوم عليها الدولة . حق الفرد الطبيعى والمدنى . حق السلطة العليا. pp. 880-98.

ولكل منها ميدانه الخاص ، فميدان العقل الحكمة وميدان اللاهوت الايمان الصادق والطاعة وليس من شأن العقل أن يقرر حصول الناس على السعادة بالطاعة وليس من شأن الايمان الصادق أن يقلل من العقل أو أن يعظم من شأنه . يستطيع العقل أن يفهم العقائد من حيث صحتها وكذبها فهو النور الفطرى الذى يحمى الانسان من الوقوع فى الأوهام والأحلام وبهذا المعنى يكون الوحى متفقا مع العقل فى موضوعه وغايته [١] .

١٣ – حق المواطن وحق السلطة [٢] :

كانت الغاية من التفرقة بين الفلسفة واللاهوت اثبات حرية التفلسف والانتقال من التفكير الدينى الى التفكير السياسى ، اذ كيف تتحقق الحرية فى موقف أو فى جماعة ، أو لو شئنا كيف يصبح المواطنون أحرارا فى دولة ، أعنى ما هو حق المواطن وما هو حق السلطة ؟ يمتد الحق الطبيعى للفرد على كل ما تستطيعه طبيعته أى انه يشمل قدرته ورغبته . لا يمنع القانون الطبيعى من أى فعل ، وغايته مصلحة الفرد والابقاء عليه ، ولا تخضع الطبيعة لقوانين العقل فما يحسنه العقل قد تقبحه الطبيعة وما قد تحسنه الطبيعة يقبحه العقل .

ولكن يود الناس العيش وفقا للعقل حتى يعيشوا فى سلام . لذلك وجب تعاون الأفراد فيما بينهم ، وأصبح الحق الذى يتمتع به كل فرد حقا جماعيا تحدده ارادة الجميع لا ارادة الأفراد ، وهكذا نشأ العقد الاجتماعى وأصبح العقل موجها لسلوك الأفراد، فلا يعامل الفرد الآخرين الا كما يعامل نفسه ويدافع عن حقهم كما يدافع عن حقه وقد نشأ هذا العقد طبقا لقانون طبيعى وهو رفض الخير الأقل لقبول الخير الاعظم وقبول الشر الأقل لتجنب الشر الأعظم أى اختيار اعظم الخيرين وأهون الشرين . غاية العقد اذن هى تحويل الفرد من العيش وفقا للطبيعة (أى وفقا للشهوة) الى العيش وفقا للعقل .

وبموجب هذا العقد تتكون الجماعة الانسانية اذ يفوض كل فرد حقه الى الجماعة التى يكون لها السلطة العليا وتجب لها الطاعة كما هو الحال فى النظام الديموقراطى الذى يطيع فيه الأفراد السلطة العليا التى تمثل حقوق الجميع والتى تصدر القوانين للمصلحة العامة لانه يستحيل ان تجتمع الغالبية العظمى على ضلال . ولا يعنى ذلك وقوع الافراد فى العبودية، فالعبد هو عبد الشهوة أو عبد الغير ، والعقد الاجتماعى يحرر الأفراد من الشهوة لانهم يعيشون به طبقا للعقل ويحررهم من سلطان الغير لانهم يعيشون فى نظام ديموقراطى، لذلك كان النظام الديموقراطى أفضل الأنظمة السياسية لأن الفرد يعيش فيه حرا فى مجتمع منظم يكون فيه انتهاك القانون اضراراً بمصلحة الغير وتكون فيه العدالة اعطاء كل ذى حق حقه طبقا للقانون المدنى ويكون الحليف من يتعهد بعدم الحاق الضرر بالآخر وبالمساعدة عند الحاجة مع بقاء كل طرف مستقلا والعدو من يخرج على الحلف من الداخل أو من الخارج ويكون الخروج على الدولة اذا حاول أحد الأفراد الاستيلاء على السلطة التى تمثل الشعب .

ولكن ما صلة القانون الالهى بالقانون الوضعى؟ يرى سبينوزا أن العيش وفقا للطبيعة سابق على العيش طبقا لوصايا الدين ، فلم تأمر الطبيعة بطاعة الله ولم يأمر العقل بذلك أيضا . لذلك لا تطيع

(١) pp. 893-8.

(٢) موضوع الفصل السابع عشر بعنوان الترجمة على أن أحدا لا يستطيع تحويل كل حقوقه الى السلطة العليا . وبين أن هذا التحويل ليس ضروريا . دولة العبرانيين وكيف كانت فى حياة موسى وبعد موته وازدهارها أسباب انهيار الدولة الالهية بعد أن نشبت فيها الفتن pp. 898-926.

الدولة أحد الا النبى شاهد الله لأنها بذلك تطيع الله وحده ، وهى حرة فى أن تطيع القانون الالهى أم تعصاه لان القانون الطبيعى أو الوضعى لا يعارض فى ذلك • ولكن ماذا يفعل الفرد اذا ما أمرته الدولة بما يعارض طاعته لله ؟ هل يطيع الله أم يطيع الدولة ؟ يجيب سبينوزا على ذلك بأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق • ولكن خشية أن يفسر كل فرد وصايا الدين على هواه ويتخذ ذلك ذريعة لعصيان قوانين الدولة تضع الدولة تشريعا للمحافظة على الدين خاصة وأن الله يأمر بطاعة القوانين الوضعية • فلو وجد المؤمن فى دولة وثنية فعلية أن يختار أحد الأمرين : اما رفض تفويض السلطة لها والتعرض للافناء التام أو تفويض السلطة لها والابقاء على النفس بطاعة قوانين الدولة ولا يستثنى من ذلك الا من وعده الله بالعون ضد الطاغية (١) •

١٤ ـ نشأة دولة العبرانيين وسقوطها (٢) :

وجد سبينوزا فى تاريخ العبرانيين نقطة تطبيق لنظريته فى العقد الاجتماعى • فعندما أراد العبرانيون الخروج من حالة الطبيعة ـ بعد خروجهم من مصر فوضوا حقهم الطبيعى الى الله نفسه ووعدوه بتنفيذ أوامره بمحض اختيارهم ، وبذلك أصبح الله رئيسهم السياسى وأخذت دولتهم اسم « مملكة الله » ، وأصبح الله ملك العبرانيين، وأعداؤهم أعداء الله، وقانونهم شريعة الله • قامت دولتهم اذن على الحكم الالهى (التيوقراطى) ، ثم فوضوا لموسى حقهم فى مخاطبة الله وتفسير القوانين فحكمهم موسى بدلا من الله، وأصبح نظامهم ملكيا طبقا للتعاليم الالهية ، أقام موسى المعبد وعين اللاويين خداما له وأبعدهم عن الحياة السياسية والحقوق المدنية ليتفرغوا لخدمة الدين وكفل الشعب رزقهم• وكانت مهمة الدولة التيوقراطية التخفيف من حدة الانفعالات للرؤساء والمواطنين ، فقد عهد الى اللاويين مهمة تفسير القوانين دون الاسباط الذين قد يستغلون سلطتهم لو أنهم قاموا بهذه المهمة، وكان الجيش مكونا من المواطنين دون المرتزقة حتى لا يستطيع الطغاة الاعتماد على الجيش ضد الشعب، ولم يظهر الطغاة من بين الاسباط نظرا لرابطة الدين التى تجمع بينهم ، وأخيرا كان هناك خوف دائم من ظهور نبى جديد يعيد الحق فينتصر الشعب له • وسيطرت الدولة على انفعالات المواطنين بقيامها على حب المواطنين لوطنهم حتى كانت اقامتهم خارجه عارا لهم •

ولكن العبرانيين لم يحافظوا دائما على تطبيق الشريعة فضلا عن طبيعتهم العاصية • فقد استغل اللاويون وضعهم الطبقى المتميز فى اذلال الشعب فقامت الثورات والفتن ، ورفض الشعب اقامة الشعائر ، فقدم الاسباط شعائر جديدة وأعطت لنفسها حق تفسير القوانين ولكن وقع الشعب تحت نير الأجنبى فترك التنظيم الالهى وأراد تنصيب ملكا عليه يحل بلاطه محل المعبد ولكن الملوك لم يسمحوا بدولة داخل دولة فأرادوا استبعاد اللاويين والأنبياء من طريقهم ولكنهم لم ينجحوا فى ذلك كما لم يستطع الأنبياء القضاء على سلطة الملوك لأن أسباب الطغيان ظلت باقية، اذا قضوا على طاغية ظهر طاغية آخر وتوالت الحروب والفتن وحل العنف محل القانون الالهى حتى سقطت دولة العبرانيين تماما وخضع العبرانيون للفرس وبعد تحررهم استولى الأحبار على السلطة من رؤساء الأسباط ، وطمح رجال

(٢) موضوع الفصل الثامن عشر بعنوان «استخلاص بعض النظريات السياسية من دولة العبرانيين وتاريخها» pp. 928-7. والفصل التاسع عشر بعنوان «حق السلطة العليا فى تنظيم الشئون الدينية وتحقيق طاعة الله باتفاق العبادة مع أمن الدولة» pp. 938-52.

الدين فى أن يصبحوا أحبارا ثم ملوكا [١] ، حتى سقطوا من جديد تحت نير الاجنبى الى يومنا هذا، ويكون الوضع الطبقى لرجال الدين هو المسؤل.

١٥ - الدين والدولة [٢] :

هل يصلح نظام الحكم الالهى (التيوقراطى) فى الظروف الحاضرة ؟ لو أراد الناس الآن تخويل حقهم لله لكان عليهم عقد حلف معه ثم قبول الله له ، ولكن الله أخبرنا بأن حلفه لم يعد حلفا ماديا لشعب معين بل روحيا للانسانية جمعاء ، ومن ناحية أخرى ، لا يصلح نظام الحكم الالهى الا لشعب مغلق على نفسه مقطوع الصلة بينه وبين باقى الشعوب الأخرى ، لذلك لا يصلح هذا النظام فى الظروف الحاضرة لانه وان كان لا يستبعد كل حكم انسانى يتمتع بسلطة سياسية مطلقة (حق موسى السياسى وحق رؤساء الأسباط والقضاة) الا انه لا يصلح للحكم المدنى فنحن نلاحظ على تاريخ العبرانيين الآتى :

١ - لم تظهر الفرق الدينية الا فى وقت متأخر عندما استولى الاحبار على السلطة فى الدولة الثانية بعد أن لم يكن لهم أية سلطة فى الدولة الأولى ثم أصدروا القرارات فى شؤون الدين وادعوا لقراراتهم نفس السلطة التى لشريعة موسى فبدأ الدين فى الانهيار وسادته الخرافة وضاع التفسير الحقيقى للقوانين ووفقوا بين هذه التفسيرات والأفعال المحرمة أو المكروهة وبدأ الناس فى تملق الأحبار ودخل الفساد فى الدين.

٢ - دفع الأنبياء الناس الى التطرف بدلا من الاعتدال بينما استطاع الملوك استمالتهم دون مقاومة منهم ، لم يتسامح الأنبياء معهم حتى مع أكثر الملوك ايمانا اذا ناقض سلوكهم الدين أى أن الانبياء أضروا بالدين اكثر مما نفعوا به .

٣ - أثناء حكم الشعب لم تنشأ الا حرب داخلية واحدة انتهت بسلام دائم ولكن ما ان قامت الملكية حتى نشأت الحروب الطاحنة المستمرة ، وفى حكم الشعب كانت الشرائع قائمة وكان الانبياء يحذرون الشعب من مخالفتها وما أن تم انتخاب الملوك حتى تدخل الانبياء لانقاذ الشعب . ولم يظهر أثناء حكم الشعب الانبياء الكذبة بينما شاعوا فى عصر الملوك ، وكان الشعب يرجع الى الله قبل عصر الملوك ، ثم عز عليه فى عصر الملوك الخضوع الى الله واستمر فى العصيان حتى هدم المدنية .

من هذه الملاحظات السابقة على تاريخ العبرانيين نستخلص النتائج الآتية :

١ - ينشأ الضرر فى الدين وفى الدولة اذا ما أعطى رجال الدين سلطة سياسية ولا ينشأ الاستقرار الا بفصل السلطتين والحد من سلطة رجال الدين حتى يتفرغوا للدين وللعقائد السلفية الشائعة .

٢ - ينشأ الضرر اذا اعتمد القانون الالهى على العقائد النظرية واذا وضعت قوانين خاصة لهذه الآراء التى تقبل المناقشة والجدل ، ويتحول النظام الى قهر وعنف اذا اعتبر الآراء الشخصية وهى حق الفرد جرائم لا تغتفر .

٣ - لا يجب اعطاء أصحاب السلطة الحق فى التمييز بين الأفعال والحكم عليها فلم يعط هذا الحق للأنبياء ، والأحرى الا يعطى لمن هم دونهم والا لحق الضرر بالدين والدولة على السواء .

٤ - لا يقبل الشعب نظام الحكم الملكى الا اذا كان متعوداً عليه من قبل ، ولا يفلح فى القضاء على الملك اذ ينشأ بدلا عنه ملك آخر [١] .

وبعد أن يدعو سبينوزا للفصل بين الدين والدولة نظرا لمساوىء نظام الحكم الالهى يعود

---

pp. 946-52.

ويوحد بينهما فى النظام الديمقراطى ، « فان الله يوزع بالسلطان ما لا يوزع بالقرآن » فمن حق السلطة ايضا تشريع القوانين فى أمور الدين والا تتجزأ السلطة فى الدولة ويسهل الاستيلاء عليها. لذلك يحاول سبينوزا اثبات أمور ثلاثة :

١ – لا يصير للدين قوة القانون الا بسلطة الحاكم •

٢ – لا يحكم الله الا من خلال السلطة السياسية •

٣ – يجب اتفاق الشعائر الدينية مع سلامة الدولة وأمنها، وهذا يعنى تحديد الدولة للشعائر وتفسيرها لها دون الشعائر الداخلية أى التقوى والاخلاص • ويبرهن سبينوزا على نقاطه الثلاث بأن الانسان فى الموقف لطبيعى يعيش طبقا للشهوة ثم ينشأ الخطأ والصواب عندما يتحول من حالة الطبيعة الى حالة العقل أى عندما يأخذ العدل قوة القانون الذى يصدر عن مشيئة من لهم الحق فى الحكم كما يشهد تاريخ العبرانيين على حكم الله من خلال موسى ممثل السلطة ولم يأخذ الدين سلطة القانون الا بعد التشريعات السياسية ولم تعد له قوته بعد انهيار الدولة وخضوعهم لقوانين بابل فالله يحكم من خلال السلطة العادلة وبذلك يكون لهم الحق فى تفسير الشرائع • وأخيرا يكون الفعل شرعيا اذا حافظ على سلامة الدولة ويكون حب الوطن بهذا المعنى واجبا مقدسا من أسمى العواطف الانسانية وحق الدولة سابق على حق الفرد للمصلحة العامة الأولوية على مصلحة الفرد ، ومن واجب السلطة تحديد الأفعال التى بها تجب طاعة الله لأنها هى المسؤولة عن المصلحة العامة ، ويؤكد تاريخ العبرانيين اتفاق الدين مع مصلحة الدولة (٢) •

ويحتج أنصار نظرية الفصل بين السلطتين السياسية والدينية بوجود كعب الأحبار عند العبرانيين لتنظيم شؤون الدين ولكن كعب الأحبار أخذ هذا الحق من موسى صاحب السلطة السياسية • وفى المسيحية قام رجال الدولة بالشعائر الدينية ، وعندما اقتصر بابا روما على تنظيم شؤون الدين حاول اخضاع الأباطرة لسلطانه حتى انتزع منهم حقهم ، ولكن استطاع رجال الدين بأقلامهم ما لم يستطعه الاباطرة بسيوفهم للتخلص من سلطة البابا • لقد نشأت المسيحية مناوئة للسلطة السياسية القائمة وتعود المسيحيون الاجتماع فى حلقات مغلقة – وهى الكنائس لتنظيم شؤون الدين ، واستمر رجال الدين فى نشر الدعوة وأصبحوا رؤساء الكنيسة ثم أخذوا بعض الاجراءات لمنع الملوك من التدخل فى شؤون الدين أهمها اقرار الرهبنة وضرورة وجود اللاهوتى على رأس الكهنوت لتفسير العقيدة •

١٦ – مواطن حر فى دولة حرة (٢) :

لو كان من السهل توجيه الاذهان كتوجيه الالسنة لما واجهت الحكومات أى أخطار ، ولسارت الرعية كما يهوى الحكام ، ولما فكر أحد أو أصدر حكما ، ولقامت السلطة على القهر والعنف وانتهكت حرمة القوانين وسلبت حقوق المواطنين • ان كل فرد حر فى أن يفكر وأن يعتقد ما يشاء ولا يتنازل بمحض اختياره عن هذا الحق أو يميل الى افكار الغير • لقد استطاع موسى حقا استماله الشعب لافكاره ولكن تم له ذلك بصفة الهية ولم يسلم هو نفسه من المعارضة والنقد، اذا كانت عبودية الاذهان مقبولة فى النظام الملكى فكيف يمكن قبولها فى النظام الديموقراطى؟ مهما كان للسلطة من حق على الشعب فانها لا تستطيع أن تمنعه حقه فى اصدار حكم حر •

---

(٢) موضوع الفصل العشرين بعنوان «فى دولة حرة، كل فرد حر فى أن يفكر وان يعبر كما يشاء»
pp. 961-4.

صحيح أن السلطة تعتبر من لا يعتنق وجهة نظرها عدوا لها ولكننا لا نبحث هنا عن الحد الاقصى للسلطة بل عن أفضل أساليب الحكم • ان اسلوب القهر خطر على الدولة نفسها ، وتقع الكوارث عندما تجبر الدولة مجالسها القومية على التفكير مثلها • إن الغرض من اقامة نظام سياسى ليس هو السيادة أو القهر بل التحرر من الخوف بحيث يعيش كل فرد فى سلام ، أى المحافظة على الحق الطبيعى فى الحياة • ليس الغرض منه تحويل البشر الى حيوانات أو آلات بل الحصول على سلامة الذهن والبدن وباختصار تكون الحرية هى الغرض الاساسى من أى نظام • ولا يعنى تفويض الفرد حقه للسلطة تنازله عن حريته فى التفكير وفى اصدار الاحكام • ولكن الى أى حد يمكن الاعتراف بحرية التفكير والتعبير دون أن يكون فى ذلك خطر على الدولة وسلامتها ؟ وهنا يصل سبينوزا فى النهاية الى الموضوع الرئيسى فى الرسالة ويرى أن الاراء التى تهدد بفسخ العقد الذى خول به المواطنون للسلطة حقهم هى التى تهدد سلامة الدولة وأمنها أما الاراء التى لا تهدد سلامة الدولة فلا يمنعها الا متعصب يريد ارهاب الناس • ان أفضل النظم السياسية تلك التى تسمح للفرد بحرية التفكير (وقد اعترف له الايمان من قبل بهذه الحرية) • قد تسبب هذه الحرية بعض المتاعب للسلطات ولكن هذه المتاعب أقل بكثير مما لو سلبت السلطات هذه الحرية من المواطنين ، وان وضع الحياة الانسانية كلها تحت سيطرة القانون يأس من العيوب لا اصلاح لها ، ومن الأفضل السماح ببعض النشاط الحر اذا كان من الصعب منعه • ان الحرية هى العامل الأساسى لتقدم العلوم والفنون ، ولو حدث أن فرضت السلطة أفكارها على المواطنين فانها لن تستطيع أن تجعل أفكارهم مطابقة لأفكارها ، وبذلك ينتهى المواطنون الى النفاق ويقولون ما لا يؤمنون به ويضيع حسن النية ويسود الخداع ، وكلما سلبت الحرية زاد السخط والتجأوا الى باطنهم ليعثروا فيه على حريتهم الضائعة ، فاذا فاض الكيل ناصبوا السلطة العداء علنا وأثاروا القلاقل والاضطرابات ويكون القانون سبب اثارة انصار الخير لا كبح جماح الظالمين ويكون تطبيق القوانين أكبر خطر يهدد الدولة ، يرفضها الاحرار ويتملقها الانتهازيون ، ان القوانين وضعت لتهدئة المشاعر لا لاثارتها وتكون مراعاة عواطف الجماهير أجدر من وضع قوانين عاجزة فيعادى المواطنون الدولة ويسقط الشهداء ويلحق العار بالسلطات لا يرهب المواطنون الموت ولا يطلبون العفو ويقبلون الشهادة لغاية شريفة ويصبحون شهداء الحرية يتبعهم الآخرون بينما يضعف البعض للجلادين • ويلخص سبينوزا تصوره للحرية فى المبادىء الستة الآتية :

١ ـ لا يمكن سلب الناس حرية التفكير والتعبير •

٢ ـ لا يهدد الاعتراف بالحرية الفردية هيبة السلطة أو حقها •

٣ ـ لا يمثل التمتع بالحرية الفردية أى خطر على سلامة الدولة •

٤ ـ لا تهدد الحرية الايمان بالأديان •

٥ ـ لا تستطيع القوانين تنظيم شؤون الفكر والأمور النظرية •

٦ ـ ضرورة الحرية الفردية للمحافظة على السلام وعلى الايمان وعلى حق السلطة العليا •

نصوص :

لو كان من السهل السيطرة على الأذهان مثلما تتم السيطرة على الألسنة لما وجدت أية حكومة

نفسها فى خطر، ولما احتاجت أية سلطة لاستعمال العنف ، ولعاش كل فرد وفقا لهوى الحكام ، وما أصدر حكما على حق أو على باطل ، على عدل أو على ظلم الا وفقا لمشيئتهم • وكما لاحظنا فى أول الفصل السابع عشر أن الأمر ليس كذلك لأن ذهن الانسان لا يقع مطلقا تحت سيطرة أى انسان آخر ، اذ لا يخول أحد بارادته أو رغما عنه الى أى انسان كان حقه الطبيعى أو قدرته على التفكير وعلى الحكم الحر فى كل شىء • وبالتالى فكل سلطة تدعى أنها تسيطر على الأذهان سلطة تتصف بالعنف ، وتبدو السيادة المطلقة ظالمة لرعاياها ومغتصبة لحقوقها عندما تحاول أن تفرض على كل منهم ما عليه قبوله على أنه حق وما عليه رفضه على أنه باطل ومعتقداته التى تحثه على تقوى الله ، فذلك حق كل فرد لا يمكن لاحد – ان شاء – أن يسلبه اياه• وأنا أعترف بأنه كلما كان فى ذهن فرد ما من الأحكام السابقة ما لا يمكن تصديقه ودون أن يخضع خضوعا مباشرا لسلطة فرد آخر انساق الى أفكار هذا الآخر حتى أننا نستطيع وصفه بأنه تابع له فى فكره • وأى خضوع هذا الذى يحصل عليه البعض بوسائل مفتعلة ؟ هل استطعنا أن نمنع الناس من أن يفضلوا رؤياهم الخاصة على رؤى الآخرين واختلاف الأذهان لا يقل عن الأذواق؟ لقد عرف موسى جيدا كيف يكسب ثقة شعبه كله دون الالتجاء الى الخداع بل بصفته الالهية حتى لقد اعتقد الناس أن أفعاله وأقواله بوحى من الله• ومع ذلك لم يسلم من الشبهات أو من التأويلات المعارضة له • فكيف يسلم الملوك أنفسهم من ذلك ؟ واذا كان من الممكن تصور عبودية الأذهان فى نظام الحكم الملكى فان هذا الاحتمال مستبعد تماما فى نظام الحكم الديموقراطى حيث يشارك الشعب كله أو معظمه فى السلطة الجماعية، وفيما أظن يعلم الجميع السبب فى ذلك •

ومهما عظم الحق الذى تتمتع به السلطة العليا فى جميع المجالات وفى كل تفسير للقانون وفيما نعتقده من تقوى فانها لا تستطيع منع الأفراد من اصدار أحكامهم فى كل شىء طبقا لآرائهم الخاصة أو الانفعال بهذا الشىء أو بذاك • صحيح أن من حق السلطة العليا اعتبار من لم يشاركوها رأيها فى كل شىء أعداء ، ولكننا لا نناقشها حقها بل نريد مصلحتها • اننا نسلم بأنها تستطيع شرعا الحكم بأعنف الطرق واصدار احكام الاعدام على المواطنين لأتفه الأسباب ، ولكن هذا الأسلوب فى الحكم يعارض الحكم السليم باجماع الناس • ولما كانت السلطة العليا لا تستطيع أن تحكم بهذا الأسلوب دون أن تعرض الدولة للخطر فاننا نستطيع انكار مقدرتها على استعمال هذه الوسائل وما شابهها وبالتالى انكار حقها المطلق لأننا نعلم أن حق السلطة العليا محدود بقدرتها •

فاذا لم يتخل أحد عن حريته فى الحكم وفى التفكير كما يشاء ، واذا كان كل فرد سيد تفكيره بناء على حق طبيعى أسمى تكون المصيبة حقا عندما يجبر أناس ذوو آراء مختلفة ومتعارضة على ألا يقولوا الا ما تقرره السلطة العليا بل ان الأذكياء منهم – كى لا نتحدث عن العامة – لا يعرفون الصمت فمن الأخطاء الشائعة عند الناس البوح بما يسرون للآخرين حتى ولو وعدوا بالكتمان • وتكون السلطة السياسية أشد عنفا اذ أنكرت على الفرد حقه فى التفكير وفى الدعوة لما يفكر فيه ، وعلى العكس تكون معتدلة اذا سلمت له بهذه الحرية •••

من الأسس التى تقوم عليها الدولة والتى بيناها من قبل يتضح تماما أن الغاية القصوى من

تأسيس الدولة ليست السيادة أو ارهاب الناس أو الوقوع تحت نير الآخر بل تحرر الفرد من الخوف بحيث يعيش كل فرد فى أمان بقدر الامكان أى يحتفظ لأقصى درجة بحقه الطبيعى فى الحياة وفى العمل دون الحاق الضرر بغيره . أكرر وأقول ان الغاية من تأسيس الدولة ليست تحويل الموجودات العاقلة الى حيوانات أو آلات بل قيام الأبدان والأذهان بوظائفها كاملة واستعمال العقل الحر وحتى لا تشهر أسلحة الحقد والغضب والحيلة وحتى لا يتحمل البعض البعض الآخر على مضض ، الحرية اذن هى الغاية من قيام الدولة ...

وأخيرا اذا رأينا أنه لا يمكن البرهنة على الولاء للدولة ولله الا بالاعمال أى بالاحسان الى الجار فاننا نعترف بلا تردد بأن أفضل الدول تلك التى تسلم للفرد بنفس الحرية التى يسلم له بها الايمان وانى أعترف بأن مثل هذه الحرية قد تسبب بعض المضايقات . ولكن هل هناك تنظيم وضعى مهما كان مثالا للحكمة لا تنشأ عنه بعض المضايقات ؟ ان من يريد تنظيم الحياة الانسانية كلها بالقوانين يزيد من حدة العيوب دون أن يقومها ، ومن الأفضل السماح بما لانستطيع منعه مهما كان الضرر الناتج عن ذلك . اننا نعلم العواقب الوخيمة المترتبة على الترف والحسد والشهوة والسكر وبعض الانفعالات المماثلة ومع ذلك نقوم بذلك كله لاننا لانستطيع الغائه بسلطة القانون مع أنها رذائل فعلية ، فالاولى أن نسمح بحرية الحكم وألا نقضى على هذه الفضيلة ، ولا يوجد ضرر واحد ينتج عن حرية التفلسف لا تستطيع السلطات القضائية ان تحتاط منه (وسأبرهن على ذلك الآن) ، أليست الحرية شرطا أوليا لتقدم العلوم والفنون ؟ لا تتقدم العلوم والفنون تقدما ملموسا الا ممن تحرروا تماما وأصبحت لهم حرية الحكم .

لنفترض انه يمكن سلب الناس حريتهم والقضاء على استقلالهم بحيث لا يمكنهم التفوه بكلمة واحدة الا بأمر السلطة العليا ، فى هذه الحالة لن يحدث مطلقا أن تتفق جميع افكارهم مع افكار السلطة العليا ، والنتيجة الحتمية لذلك استمرار الرعايا فى تفكيرهم الذى تعارضه اقوالهم وايمانهم ويضيع هذا الشرط الضرورى لاقامة الدولة ويروج الفساد الكريه والخداع والمخاتلة وتنحل الارتباطات الاجتماعية . انه نوهم حقا أن نرجو من جميع الناس تكرار نفس الأقوال التى تلقن لهم بل على العكس ، كلما حاولت سلب الناس حريتهم فى التعبير اشتدت مقاومتهم ، لاأقصد هؤلاء الشرهين بل المتملقين الذين لا خلاق لهم والذين يرون خلاصهم فى تأمل بريق الذهب فى الصندوق وفى اشباع بطونهم . بل هؤلاء الذين تحرروا بفضل حسن تعليمهم وطهارة حياتهم ونبل أخلاقهم . لقد طبع الناس على الاستياء الشديد اذا ما اعتبرت بعض آرائهم التى يعتقدون صحتها جرما واذا ما وصف ما يحث نفوسهم على تقوى الله وحب الناس على أنه جريمة . وينتهى بهم المطاف الى رفض قوانين الدولة والتجرؤ على السلطات القضائية ، ويرون أن اثارة الفتنة واستعمال العنف فى سبيل مايعتقدونه شىء محبوب لا عار فيه . ولما كانت الطبيعة الانسانية على هذا النحو ، يتضح أن القوانين الموضوعة ضد هذه الآراء لا تهدد المجرمين بل من حافظوا على شخصيتهم المستقلة ، وأنها لم توضع عقابا للأشرار بل اساءة للشرفاء ، ومن ثم كان تطبيقها يمثل خطرا عظيما على الدولة ، على أية حال ، لا تقدم هذه القوانين الموضوعة لادانة الآراء أية

فائدة لان من يؤمنون بصحتها لا يمكنهم طاعة هذه القوانين ، ومن يرفضونها لبطلانها يجدون في هذه القوانين امتيازات لهم وينتابهم الغرور بحيث لا تستطيع السلطات القضائية ـ لو ارادت ـ الغاءها ، ونضف على ذلك النتائج التي استخلصناها من الفصل الثامن عشر في النقطة الثانية من تاريخ العبرانيين • ولم نشأت من الفرق داخل الكنيسة بعد ان ارادت السلطات القضائية انهاء الجدل بين رجل الدين بواسطة القوانين ! ان لم يسيطر على الناس امل باخذ القوانين والسلطات القضائية لجانبهم وانتصروا على أعدائهم مع تصفيق العمة وتقديم مظاهر التكريم لهم لما قاتلوا بقدر كف من سوء النية ولا حرك نفوسهم قدر كاف من الغضب ، وهذا ما يؤكده العقل والتجربة بامثلة كثيرة من الحياة اليومية ، لقد وضعت معظم القوانين التي تامر كل فرد بما يعتقد وتحرم عليه أن يتكلم أو أن يكتب ضد هذا الرأى أو ذلك ، لارضاء الناس أو بالأحرى استسلاما لغضب من لا يشعرون بالاعتزاز بالشخصية المستقلة والذين يستطيعون بسهولة تحويل اخلاص العمة المنشقة بنوع من الهيبة المضرة الى غضب واثارتها ضد من يريدون هلاكهم • أليس من الأفضل السيطرة على غضب العامة واندفاعها من وضع لقوانين يخرقها أنصار الفنون وأصدقاء الفضيلة وحدهم ومن سقوط الدولة الى هذا الحضيض بحيث لا تستطيع تحمل وجود بعض الشرفاء من بين رعاياها • ان أسوأ موقف توضع فيه الدولة نفيها للشرفاء كأنهم مجرمون لاعتناقهم آراء مخالفة لا يستطيعون اخفاءها • أقول انها لمصيبة كبيرة أن يعامل بعض الافراد على انهم اعداء الدولة ويساقون للموت بلا ذنب فعلوه وبلا جرم اقترفوه بل لانهم يعتزون بشخصيتهم ، وتصبح المنصة التي يرتعش منها الاشرار مسرحا عظيما تقام عليه ادوار رائعة للشجاعة وللقدرة على التحمل ، بينما يلحق العار بالسلطة العليا • ومن يعلم براءته لا يخاف الموت كما يخافه المجرمون ولا يطلب العفو ، ومن لا يخاف تانيب الضمير لذنب اقترفه يقبل الموت لغاية نبيلة لا عقابا له ويصبح عظيما حقا لانه ضحى بحياته في سبيل الحرية • اى مثل يعطيه هؤلاء بموتهم ! لا يفهم سببه الاغبياء والجبناء ويحتقره دعاة الفتنة ويعظمه الفضلاء • فاما ان نتبعهم ونتعلم منهم واما ان نصفق للجلادين •

اذا اردنا ان نقدر الولاء دون المحاباة والا نضعف السلطة العليا او نخضعها لدعاة الفتن يجب الاعتراف لكل فرد بحرية الراى وحكم الناس بحيث يعيشون فى سلام بالرغم من اختلافهم وتعارضهم فى الاراء • اننا لا نشك فى ان هذه الطريقة فى الحكم أفضل الطرق وأكثرها اتفاقا مع الطبيعة الانسانية ، ففى الدولة الديموقراطية (وهى أقرب نظم الحكم الى حالة الطبيعة) بينما أن جميع الناس يعملون بارادة مشتركة ولكنهم لا يحكمون أو يفكرون معا • وبعبارة أخرى ، لما كانوا يعلمون أنهم لايستطيعون دائما الاجتماع على رأى واحد اتفقوا على العمل بالرأى الذى يجتمع عليه أغلبية الناس واعطائه قوة القانون مع الاحتفاظ بحقهم فى الغاء هذا القرار الاول عندما يجدون أفضل منه ، وكلما قلت حرية الناس فى الرأى ابتعدوا عن حالة الطبيعة واشتد عنف السلطة ••